
رواية
جول ليرمينا
اللغز
Jidar
Culture & Publishing
ترجمها عن الفرنسية مدين حرامي

اللغز

الكتاب: اللغز

المؤلف: جول ليرمينا

رواية

ترجمها عن الفرنسية: مدين حرامي

العنوان الأصلي للكتاب والمؤلف والناشر باللغة الفرنسية لأول طبعة

L’énigme

Jules Lermina

(1895)

الناشر:

جدار للثقافة والنشر | مالمو، الإسكندرية

info@jidar.net | www.jidar.net

الطبعة الأولى 2026

الترقيم الدولي: 978-1-291-90679-0

التصميم الداخلي والغلاف: جدار للحلول المستدامة

Title**: L’énigme**

Author: Jules Lermina

Novel

Translate it from french to Arabic

Publisher: Jidar for Culture & Publishing

.Interior and Cover Design: Jidar for Sustainable Solutions

ISBN: 978-1-291-90679-0

جول ليرمينا

اللغز

رواية

ترجمة مدين حرامي

مقدمة المترجم

في ركنٍ هادئ من باريس، بعيدًا عن صخب المعارك التي خاضها في حياته، يعيش الجنرال المتقاعد السيد دي مورلين، أرملٌ يكتفي بصحبة مدبرة منزله العجوز، حتى يدخل القدر على حياته بوجه فتاة يتيمة من أقاربه. جمالها الهادئ وحضورها العذب يأسر قلبه، فيتزوجها رغم فارق السن الكبير.

يستقبلها ابنه بقبولٍ ودود، لكن مدبرة المنزل، التي اعتادت أن تكون السيدة الوحيدة في هذا البيت، ترى في الزوجة الشابة دخيلة ومغتصِبة لمكانةٍ كانت تعدّها حقها، فتكنّ لها حقدًا صامتًا يتغلغل مع الأيام.

يمر عام على الزواج، ثم تنقلب الطمأنينة إلى مأساة: الجنرال يضع حدًا لحياته فجأة، تاركًا خلفه صدمة وأسئلة لا تجد جوابًا. لماذا انتحر؟ هل كان ضحية سرّ دفين؟ الجميع حائرون، إلا المدبرة العجوز التي تؤكد بيقين لا يتزعزع أنها تعرف الحقيقة المظلمة التي قادت إلى هذا المصير.

في «اللغز»، ينسج جول ليرمينا، الروائي والصحفي الفرنسي الغزير الإنتاج (1839 – 1915)، حكاية نفسية مشحونة بالريبة، حيث تختلط الغيرة بالحب، والكراهية بالوفاء، لتكشف في النهاية أن أعظم الألغاز تكمن في أعماق النفس البشرية.

[1]

بعد أن خدَم فرنسا ببراعةٍ لسنواتٍ عديدة، تقاعد من الخدمة الجنرال دي مورلين الذي يبلغ من العمر ستين عاماً. كان ما يزال نشطاً، موهوباً بامتيازٍ رائعٍ، يذكّرنا بنوعٍ من هؤلاء النبلاء القدماء الذين كانت كلمتهم مقدّسة، ولم تقبل دقتّهم المراوغة أو التنازل عندما يتعلق الأمر بمسائل الوفاء بالتزامٍ ما.

كان السيد دي مورلين أرملاً. حتى إنَّ فقدان زوجته هورتنس، المولودة في شاليه، هو ما دفعه إلى التخلي عن الحياة العسكرية. لم يتماشَ حزنه العميق جيداً مع الحياة النشطة؛ إذ تخلّى عن كل طموحاته وانتقل للعيش في فيتري بالقرب من باريس، في عقارٍ صغيرٍ حيث وجد السكينة التي يحتاجها، وكرّسَ نفسه لأعمال البستنة وإرضاء أذواقه التي لم يفقدها خلال مسيرته العسكرية الطويلة.

ابنه؛ جورج دي مورلين، البالغ من العمر خمسة وعشرين عاماً، رُقِّيَ مؤخراً إلى رتبة ملازم بحريّة، وفي الوقت الذي بدأت فيه هذه القصة القصيرة، كان منخرطاً في رحلة استكشافٍ كبيرة.

وجدَ الجنرال نفسه وحيداً في عمرٍ يحتاج فيه الإنسان أكثر من أيّ وقتٍ مضى إلى الشعور بوجود عاطفةٍ يقظةٍ تجاهه. القلب البارد المتجمّد من الندم، يشعر بقلقٍ مؤلمٍ عندما يكون كل شيءٍ حوله فارغاً وصامتاً.

عاشَت بجوار الجنرال مربيّةٌ عجوزٌ؛ أرملة جنديٍّ سابقٍ، قاسيةٌ قليلاً، وتوبّخه بعض الشيء، سعيدة بالسُلطة التي فوّضها إليها، وتكنُّ للسيد دي مورلين، ولابنه، ولذكرى المتوفاة خاصةً، مودةً عميقةً، غريزيّةً أكثر من كونها منطقيةً. فهناك تفانٍ يكاد يكون وحشياً ويفرض نفسه بنوعٍ من العنف. لم تكن جيرمين رقيقة الإحساس؛ بل كانت تمارس الرعاية التي تقدّمها لسيّدها كحقٍّ لها. وكأنها مِلكٌ لها. كانت مودّتها بمنزلة نيرٍ أُمِرَت بحملِه؛ فكان هذا النّير ثقيلاً لدرجة أنه يجعل الطيبة الهائلة لهذا المخلوق غير المفهوم يبدو خفيفاً. تحمّل السيد دي مورلين هذا الهوس من الكياسة المفروضة بصمتٍ، حتى وقع حدثٌ أدى إلى تغيير وضعه بشكلٍ خاص ووضعِ جيرمين.

توفيت إحدى قريباته البعيدات، وقبل وفاتها، خاطبته في رسالةٍ كُتِبَت وسط ألمها الشديد، متوسّلةً إليه أن يستقبل ابنتها؛ ماري ديلتور التي ستبقى من دون ثروةٍ ومن دون دعمٍ.

لم يتردّد السيد دي مورلين. ومن دون استشارة جيرمين - ربما كان سعيداً بالتصرف بمبادرةٍ منه - أجاب المرأة المسكينة على الفور بأنه يترقّب مجيء ابنتها. ضاعفَ الاجتهاد الذي بذله في هذا العمل الصالح قيمته؛ لأن السيدة ديلتور، قبل أن تفارق الحياة، شعرَت برضا لا يوصف عندما علمَت أن مصير ابنتها الحبيبة صار مضموناً.

ومع ذلك، في عجلةٍ من أمره، لم يستفسر الجنرال عن هوية المرأة التي ستأتي لتعيش تحت سقف منزله. لذلك، كان الأمر مفاجأةً عميقةً ونوعاً من الرعب عندما شَهِدَ السيد دي مورلين وصولَ امرأةٍ بمظهر مميّزٍ، وبوجهٍ منتعشٍ ولطيفٍ إلى بتيت تويلري؛ كما كان

يطلق على ممتلكاته في الريف. باختصار، كانت ماري ديلتور التي بالكاد تبلغ من العمر ستة وعشرين عاماً، ساحرةً في لباس الحِداد.

غضبت جيرمين في البداية لعدم استدعائها لإبداءِ رأيها، وخصّصت للوافدة الجديدة واحدةً من تلك الكراهيات الأكثر مرارةً حيث أظهرت كلُّ الظروف بشكلٍ واضحٍ ظلمها.

منذ الأيام الأولى لإقامتها في بتيت تويلري، أثبتَت ماري ديلتور؛ الذكية والمتواضعة في الوقت نفسه، مدى امتنانها للجنرال على اللطف الذي أظهره لها. أظهرت تواضعاً تجاه جيرمين، وكرّست كل احترامٍ للسيد دي مورلين الذي سرعان ما طوّر عاطفةً تجاهها، ربما بسرعةٍ أقل من كراهية جيرمين "للمُغتَصِبة".

كانت ماري ديلتور شقراء؛ ملامحها الدقيقة المكلومة بالحزن بسبب وفاة والدتها، تنضح بالهدوء الذي لا يخلو من النُّبل. كما أنها تتمتع بتلك الميّزة العظيمة المتمثلة في كونها نَشِطةً من دون فظاظة، ومشغولة باستمرار من دون زيادة في الحركة. عند وصولها، تخلّت جيرمين فجأة عن مكانها مع الجنرال، كما لو أن ذلك سيعاقب الأخير على كتمانه بحرمانه من الرعاية أو بالأحرى مَطالب حكمها المستبدة. شعرَ الجنرال بأنه محاطٌ بجوٍّ جديدٍ تماماً؛ هذه الطبيعةُ القويّةُ، البريّة قليلاً، كما هو الحال في كل ما يتعلّق بالضرورة بالقسوة العسكرية، خفَّت، وتحضَّرت في اتصالها مع هذه الوداعة المتساوية دائماً، المتسامحة مع تقلبات الأهواء والمبتسمة للغضب اللاإرادي. ونظراً لشباب القلب، وبمرور أربع سنوات على وفاة السيدة دي مورلين، ففي إحدى أمسيات الخريف

الجميلة، بينما تخوض ماري بإصرارٍ ضده معركة في لعبة التريكتراك،[1] وضعَ الجنرال دي مورلين كوبه بوضوحٍ على الطاولة، واستند إلى الوراء على كرسيه، وجمعَ يديه شابكاً أصابعه، مفرقعاً مفاصله، وتمتمَ ثلاث أو أربع مرات، ثم احمرَّ حتى أذنيه تماماً، وقال: «آنسة ماري، هل ترغبين في أن نتحدث؟».

ردَّت الشابة: «ولِمَ لا؟ هل ترهقك لعبة التريكتراك؟».

قال الجنرال: «ترهقني؟! أنا؟! ولكن النسغ! أنا قويٌّ... ترهقني! على سبيل المثال».

بدا أن هذا الافتراض قويٌّ جداً على قلبه في تلك اللحظة الخاصة، لأنه نهض فجأةً وخطا بضع خطواتٍ، مؤكداً باستقامة قامته وحِدّة حركته القوة التي بقيت فيه...

قالت ماري: «لم أقصد أن أؤذيك!».

ردَّ الجنرال: «أعرف ذلك جيداً يا صغيرتي.. ألستِ الطيبة نفسها؟».

قالت ماري: «لنتحدث إذاً، بما أنك ترغب في ذلك...».

ردَّ الجنرال: «أوه! هذا صحيح! قلتُ إننا سنتحدث... حسناً... هيا!».

كرر هذه الكلمة مراتٍ عدةً: «هيا!»، لكنه لم يقل شيئاً أكثر من ذلك. نظرَت إليه ماري وهي تبتسم، من دون أن تخلو ابتسامتها من بعض الشقاوة.

---

[1] لعبة شبيهة بلعبة طاولة الزهر، حيث تخبأ أحجار النرد داخل كوبٍ بدلاً من رميها في الطاولة.

لكن الرجل الذي غدا في نار الحرب المكشوفة لم يعد بإمكانه التردد لفترةٍ أطول، فتابع: «سامحيني على هذا السؤال المفاجئ... ولكن كيف، وأنت شابةٌ وجميلةٌ وطيبةٌ كما أنتِ، ولا تفكرين في الزواج؟».

خفضَت ماري رأسها وأصبحت شاحبةً قليلاً. عندما نظرت مرةً أخرى إلى الجنرال، رأى عينيها مبللتين بالدموع.

قالت بصوتٍ مرتعشٍ قليلاً: «سأجيبك... بما أنني لا أعرف الكذب وأريد أن أخبرك بالحقيقة كاملةً. أَحببتُ وأُحببتُ مرةً واحدة في حياتي، كان عمري عشرين عاماً. لكن الشخص الذي اخترته والذي أضعتُ فيه كل أمل حياتي، نسيَني وتزوّج بأخرى...».

صرخ السيد دي مورلين: «أوه! هذا سيئ... تكاد تكون جريمةً!».

أجابت ماري ديلتور بلطفٍ أكثر، وأضاء وجهها بتعبير المحبّة المشعّة: «يجب أن نكون متسامحين، كنتُ فقيرةً... وهو ثريٌّ. كان طموحاً، وذكاؤه منحه هذا الحقّ... حارب والدُه هواه. وهو قاومَ طويلاً، ثم فهم أو ظنَّ أنه يفهم أننا لم نخلق لبعضٍ... في أحد الأيام ودّعني، وتوسَّل إليّ أن أرد له كلمتي، معلناً، على أيّ حال، أنه إذا طلبتُ ذلك منه، فسيلتزم بوعوده... وضعتُ يدي في يده ونظرتُ إلى وجهه بنظرةٍ ثاقبةٍ وقلت: "أطعْ أباك!"، ثم رحلَ ولم أرَه منذ ذلك الحين..».

عضَّ السيد دي مورلين شاربه بغضبٍ؛ إذ أثارته هذه البساطة في التضحية وأغضبته في الوقت نفسه.

أجابت ماري: «هذه هي روايتي البائسة بأكملها. لن أتزوج... اتخذتُ قراري... واتخذته بشكلٍ جيدٍ، أؤكد لكَ ذلك».

عمّت هناك لحظةُ صمتٍ.

جلس السيد دي مورلين مرةً أخرى محيطاً بنظرته الصّريحة والصّادقة رأسَ هذه الطفلة السّاحرة التي بدَت له بطلةً... ثم تحرّكت شفتاه ولكن لم يخرج أيّ صوتٍ.

ما الذي أراد قوله بالضبط وكان مؤلماً جداً لخجله؟ مرَّت بضع دقائق على هذا النحو. ثم، كما لو أنه اتخذ قراراً فجائياً، أدخل السيد دي مورلين يده في جيبه، وأخرج محفظته وفتحها، ثم سحبَ منها رسالةً، وسلّمها مفتوحة بالكامل إلى ماري ديلتور: «اقرأي من فضلك... لا أجرؤ على الكلام... أنا طفلٌ! لكن عديني أن تجيبيني بصدقٍ...».

عادت ماري إلى هدوئها، ووضعت يدها على جبينها ودفعت جانباً الرؤية المؤلمة التي أثارتها في وقتٍ سابقٍ. ثم أخذت الرسالة..

قال الجنرال: «لو قرأت بصوتٍ عالٍ، ربما سأحصل على شجاعةٍ أكثر...».

نظرَت إليه بفضولٍ، وربما خائفة بعض الشيء. ثم أعادت عينيها إلى الرسالة وبدأت في القراءة.

جاء في الرسالة: «والدي العزيز والمحبّ، أنت تغمرني بالبهجة عندما تستشيرني في مشاريعَ ذات أهميةٍ جادةٍ ومؤثرةٍ بالنسبة إليك في الوقت نفسه... كان بإمكانك التصرّف من دون أن تسألني شيئاً، وبالتأكيد تعرف جيداً الاحترام والحبّ الذي أكنّهما لكَ حتى

تفترض أنني لم أكن لأخضع للقرار المُتخذ. ولكن بما أنكَ دعوتني لشرف توجيه نصيحتي المتواضعة والمُحبة إليك، فسأردُّ بكل الصراحة التي تطلبها مني...

لن أخفي عنك أنني شعرتُ في اللحظة الأولى بحزنٍ شديدٍ عندما تخيّلتُ أن شخصاً آخر قد يجلس في هذا المنزل الذي يحتضن أمي العزيزة... ولكن لمعرفتي بكل سموّ ضميرك، وكل نبلِ قلبك، أعدتُ باهتمامٍ محترمٍ قراءةَ الصورة التي قدّمتها لي عن عزلتك الماضية وسعادتك الحالية، قدَّرتُ أن تلك وحدها من تستحق أن تحلّ بجانبك محلَّ والدتي العزيزة والمبجّلة، والتي عرفَت كيف تلهمك من خلال إخلاصها وحنانها كابنة تقريباً، والارتباط الذي تعبّر عنه بكل نبلٍ وصراحةٍ.

تقول: "أنتَ تخشى أن تخيفني كلمة "زوجة أبي" هذه... إذا وافقتَ على ذلك، سأستبدلها بكلمة "صديقة". أريدك أن تكون سعيداً، وفي هذا، أنت أفضل القضاة وأصدقهم... إنها شابةٌ جداً؛ كما تقول! عمر قلبك عشرون سنةً يا أبي، وأنت مِن الذين تزيد سنواتهم الطابعَ الطيّب وتؤكّد الخير. لذلك أقول لكَ بكل ثقةٍ: اطلب من تحبّها إذا وافقت على أن تصبح رفيقتك و... صديقتي. لن يكون لديها ابن أكثر محبة من ذلك الذي سيدين لها بسعادة وجودِكَ... وأخيراً يا والدي! بما أنك تطلب مني، وأنت مبتسمٌ، موافقتي على زواجك، فأنا أعطيك إياها وأطلب منك أن تشكر وتبارك، باسم ابنك، تلكَ التي عرفَت كيف توقظ فيك تلك التطلّعات إلى السعادة والحنان».

كانت هذه الرسالة مؤرَّخةً في شنغهاي وموقّعة باسم جورج دي مورلين.

ارتعشت ماري ديلتور وتركت الورقة تنزلق بين أصابعها...

قال لها الجنرال وهو ينحني إلى الأمام: «ماري! هل ترغبين في مناداتك بالسيدة دي مورلين؟».

قاومت الفتاة. كانت مضطرة... ألم تكن فقيرةً، معزولةً؟ ألن يتهموها بالاستيلاء العاطفي؟ فكرت في جيرمين التي كانت نظرتها القاسية تثقل كاهلها أحياناً كأنها تهديد.

لكن الجنرال عرف كيف ينتصر على شكوكها ومخاوفها... وأخيراً استسلمت ماري، ولم يمضِ سوى شهرين حتى تزوّج الكونت دي مورلين من ماري ديلتور في كنيسة فيتري المتواضعة.

مرَّت سنةٌ تقريباً؛ سنةٌ من الهدوء والسعادة.

في أحد الأيام، وبينما كان بعض المزارعين يمرّون على الطريق، رأوا رجلاً متكئاً على جدار حديقةٍ، ساكناً... كان النهار قد بزغ للتو... توقفوا مذهولين، ثم قرروا الاقتراب... لمسَ أحدهم الرجل فسقط بثقلٍ على الأرض، بينما انزلق مسدسٌ من يده المتشنّجة.

هذا الرجل الذي اخترقت رصاصةٌ رأسه كان الكونت دي مورلين... ميتاً!

[2]

كان الكونت معروفاً ومحبوباً في جميع أنحاء البلاد. والأشخاص الذين اكتشفوا جثته يعرفونه جيداً إذ سبقَ لهم أن تعاملوا معه مراراً وتكراراً. لذلك، رغم أن الحساسية ليست من أبرز صفات فلاحينا، إلا أنهم شعروا بألمٍ حقيقيٍّ عندما تعرّفوا على سيد بتيت تويلري.

لا مجال للشك؛ إنه انتحار! كيف استسلم فجأةً هذا الرجل الذي بدا خالياً من كل الهموم، وثرياً، والذي تزوّج امرأة اختارها بنفسه، لهجوم اليأس هذا؟ هل كانت لحظة جنونٍ، أم هناك سرّاً رهيباً في حياة هذا الرجل الطّيب قد أثقل قلبه حتى كسره في الوقت المناسب؟

كان المكان الذي عُثِرَ فيه على الجثة على بعد فرسخين من بتيت تويلري، وذلك على أراضي بلدة سـ الصغيرة. توجّه عمدة البلدة على الفور بعد إخطاره إلى مكان الحادث، ووافق طبيبٌ باريسيٌّ كان في إجازة على مرافقته. لكن التحقيقات الأوليّة لم تترك أيّ أملٍ أو تردّدٍ بشأن السبب الفيزيولوجي للوفاة. كان المسدس الذي استخدمه الجنرال سلاحاً حديثاً مزدوجَ الماسورة. ضُغِطَت الفوهة على الصَّدغ، وانفجرت الرصاصة مخترقةً الدماغ. بدا واضحاً تماماً أنّ الموت حدثَ مباشرةً. كان هناك فقط ثقبٌ دائريٌّ صغيرٌ على البشرة الداكنة، ولم تتدفق قطرة دمٍ واحدة.

كان الجنرال مرتدياً ملابس سوداء مرتبة وأنيقة. بدا الأمر كما لو أنه، في هدوء قراره العنيد، اهتمَّ بعنايةٍ خاصّةٍ بارتداء ملابسه. فقط تفاصيلُ فريدةٌ وُجِدَت على بعد خطواتٍ منه؛ وردةُ وسامِ جوقةِ الشرف، وكأنه، بحركةٍ يائسةٍ، انتزعها قبل أن يطلق النار على نفسه.

جُلِبَت نقّالةٌ مرتجلةٌ ووُضعت عليها الجثة. أُلقيت ملاءةٌ على الجثة، ثم اتجه موكب الجنازة إلى الطريق المؤدي إلى بتيت تويلري. احتراماً للميت، وأيضاً مع فكرةٍ كريمةٍ لتخفيف مرارة الصّدمة التي ستصيب السيدة دي مورلين، رافق عمدة البلدة حاملي الجثمان.

دقَّت الساعة الثامنة صباحاً مع وصول القافلة الحزينة إلى الطريق أمام بوابة بتيت تويلري.

في هذه اللحظة، أطلقت ديان؛ كلبة الجنرال المفضلة، المقيّدة في الفناء الأمامي، نباحاً مؤلماً، وأطاعَت هذه الغريزة الغامضة التي يحاول العِلم تفسيرها عبثاً، بذلت مجهوداً يائساً، وكسرت سلسلتها، وقفزَت فوق حائط السياج، كانت ستقفز على الجثة التي تحملها النقّالة لو لم تُبعَد عنها.

من الداخل، سمعَت العجوز جيرمين، المنهمكة في عملها، صرخة الحيوان، فخرجت مسرعةً، وعلى الفور سيطرت عليها هذه المشاعر التي تنبع من الخرافات الأسطورية، والتي سيؤكدها الحدث المؤسف على الرغم من ذلك...

رأَت الموكب، ووضعت يديها في شعرها الرّمادي، واستندت إلى الحائط مذعورةً، غير قادرةٍ على اتخاذ خطوة، أو النطق بكلمةٍ واحدةٍ.

أشارَ عمدة البلدة - واسمه ماليريه – إلى الحمّالين بالتوقف، ثم تقدّم نحو جيرمين. نظرَت إليه بعينيها الثابتتين المتّسعتين من الرّعب؛ كان المسؤول يعرفها، ويعرف ارتباطها العميق بسيّدها، فقال لها: «جيرمين، تحلّي بالشجاعة! إن مصيبةً عظيمةً حلَّت بكم...!».

انقبض وجه المرأة المسكينة، واصطكّت أسنانها، ورفعَت ذراعها، مشيرة إلى النقّالة سائلةً بصوتٍ بالكاد مسموع: «من هناك؟».

ردَّ العمدة: «إنه سيّدك؛ الكونت دي مورلين...!».

تمتمت جيرمين: «جريحٌ...!».

أخفض العمدة رأسه.

صرخت جيرمين وهي تضرب صدرها ضربةً عنيفةً: «ميّت!». ثم انتصبت وركضت بقوةٍ لم يتوقعها أحد، ودفعَت الحاملين جانباً، لتضع يدها بسرعةٍ على الملاءة التي تخفي الجثة، وبحركةٍ مفاجئةٍ كشفَت وجه الميّت، ثم سقطَت على ركبتيها وانفجرَت بالبكاء..

ومع ذلك، تردّدَ عمدة البلدة في المضي قدماً. كان هناك شخصٌ آخر في القصر يجب أن يتلقى هذه الصدمة الفظيعة؛ حتى أشجع الأشخاص يتراجع عن هذه الواجبات المروعة.

بدا الأمر كما لو أن جيرمين تنبأت بهذا الشعور؛ وقفَت فجأة، ومرَّرت يديها الطويلتين الجافتين على عينيها، والتفتَت نحو الحمّالين قائلة بصوتٍ أجشّ: «اتبعوني!».

عادَت نحو البوابة وتنحَّت جانباً لتسمح للجثّة بالمرور؛ الآن جفَّت عيناها وشحب وجهها، تساقط شعرها الرمادي المنسدل بشكلٍ غير منتظمٍ حول وجهها. كانت مخيفةً بسبب حالة اليأس المركّز، وفي نظرتها الثابتة، يومض شررٌ غاضبٌ.

قال العمدة: «يجب أن نعلن عن هذه الكارثة...».

عقَّبَت جيرمين بلهجةٍ شبه وحشيةٍ: «إلى ديلتور تعال معي يا سيد ماليريه! سأتولى الأمر...».

صعدت الدرج مباشرةً، وتبعها العمدة عن كثب؛ إذ خشِيَ أن تصيب هذه المرأة التي يبدو أنَّ الألم يقودها إلى الجنون، الكونتيسةَ الشابةَ بصدمةٍ شديدةٍ، فغمغمَ: «يجب أن نتصرّف بحذرٍ».

لكن لم تبدُ المرأة العجوز كمَن يستمع أو يصغي إليه. وصلت بالفعل إلى الطابق الأول، وفتحت باباً؛ كان هذا باب شقّة السيدة دي مورلين الخاصة. ومن دون أن تطرق الباب، أو تتخذ أيّ احتياطاتٍ، وكأن يأسها قد حررها من التزاماتها المنزلية، فتحَت باباً آخر؛ باب غرفة نوم الكونتيسة...

كانت الشابة نصف مستلقيةٍ على كرسيٍّ بذراعين؛ نائمةً. لم يكن سريرها مرتّباً، ويشير شحوبها إلى أنها استسلمت للتعب.

توجّهت جيرمين نحوها مباشرةً، وقبل أن يتمكّن العمدة من توقّع حركتها، أمسكَت بذراع ماري... وفي اللحظة التي فتحَت فيها ماري عينيها بذهولٍ، صرخت المرأة العجوز: «سيدتي الكونتيسة! الجنرال في الطابق السفلي... ميت... لقد قُتل!».

أطلقت السيدة دي مورلين صرخةً رهيبةً، وتحررت من حضن جيرمين بحركةٍ عنيفةٍ، وبلحظةٍ رأت السيد ماليريه، فقالت وهي في حالة هلعٍ: «ما الأمر؟ ميت؟! زوجي؟! من قال ذلك؟!».

كررت جيرمين وهي تضرب قدمها بعنفٍ: «قلتُ مقتولاً!».

لكن العمدة قاطعها قائلاً: «يقود الألم هذه المرأة المسكينة إلى الضّلال. سيدتي! الألم الذي يصيبك رهيبٌ... لقد انتحر الكونت دي مورلين!».

بدَت الكونتيسة وكأنها تعرّضت لصاعقةٍ ما. ترنّحَت وكادت أن تسقط إلى الوراء لو لم يسندها السيد ماليريه. انهارَت في كرسيّها، وشفتاها ترتجفان، ولم تجد القوة للبكاء.

أما جيرمين، فبدا وكأن كلمات العمدة الأخيرة قد أصابتها بدهشةٍ لا توصف. هل حقاً خطرَت لها فكرة القتل لأول مرةٍ، وبدَت فرضية الانتحار هذه غير مبررة بالنسبة إليها؟ انسحبت ببطءٍ نحو الباب، إلى الوراء، وأبقت عينيها مثبتتين بعنادٍ على الكونتيسة.

وفي هذه الأثناء، استعادت الكونتيسة وعيها، ثم قالت للعمدة: «اعذرني! لكنّ هذا الخبر فظيعٌ جداً لدرجة أنني لا أستطيع تصديق ما سمعته...».

كان صوتها يرتجف، وتوشك على البكاء حيث يمكنك أن تشعر بالدموع جاهزةً كي تنهمر.

أجاب العمدة: «إنه حقيقيٌّ يا سيدتي!»، وبكلماتٍ قليلةٍ، روى الظروف التي تمَّت فيها اكتشاف الجثة.

استمعت إليه ماري دي مورلين من دون أن تقاطعه. وعندما انتهى، هزَّت رأسها مراتٍ عدةً، وعيناها نصف مغمضتين، ويداها مشدودتان، ثم قالت: «خذوني إلى زوجي»، نهضت، بدأت دموعٌ غزيرةٌ تنهمرُ على خديها.

توقفت جيرمين ساكنةً بالقرب من الباب. عندما مرَّت ماري أمامها، حرّكَت الأخيرة يدها لتمدّها إلى يد جيرمين، وهي تهمس: «جيرمين المسكينة!».

لكن الخادمة تراجعت. نزلت ماري، وتبعها السيد ماليريه.

وُضِعَت النقّالة أمام الدرجات الأمامية، وكان الفلاحون في انتظار الأوامر الجديدة، ورؤوسهم حاسرةٌ، يتحدثون فيما بينهم بأصواتٍ خافتةٍ.

ظهرَت الكونتيسة، واستُقبِلَت بأصوات همسٍ تُنبئ بشفقةٍ حزينةٍ.

تجاوزت الدرجات الحجريّة، ثم ركعت بجوار الجثّة، انحنت عليها وقبّلَت جبينها للحظاتٍ طويلةٍ وبشكلٍ مقدسٍ للغاية.

في اللحظة التي لمسَت فيها شفتاها وجه الميت، أطلقت جيرمين الواقفة بالقرب من السيد ماليريه، هديراً أجشَّ، وبحركةٍ لا إراديةٍ وضعَت يدها على ذراع العمدة الذي نظرَ إليها ورأى وجهها المشوّش، وقالت: «كيف يمكن للجنرال أن يُقدِمَ على الانتحار وهو محبوبٌ جداً؟»، ثم تركت ذراعه فجأةً.

نهضَت السيدة دي مورلين، ثم طلبت من الحمّالين وضع الجثّة في غرفة المعيشة في الطابق الأرضي. وفي غضون لحظاتٍ قليلةٍ، وحدها - لأن جيرمين الكئيبة ظلَّت على الدرج، غير مهتمةٍ ظاهرياً بكل ما يحدث حولها - رتبَت الكونتيسة جزءاً من كنيسة الجنازة، ثم بكَت ولم تتوقف إلا لتمسح دموعها التي تبلّل وجنتيها.

فقال لها أحد الفلاحين: «ها هو المسدس يا سيدتي!».

أخذته ونظرت إليه بعنايةٍ، ثم وضعته على أحد الأثاث. عادت إلى الجثة التي كان رأسها، الموضوع على وسادةٍ، أكثر شحوباً من القماش الذي أحاطها كإطارٍ لها. اكتسب وجه الجثة تلك الصّلابة الرّخامية التي تمثّل جمال الموت. برزَت الملامح الصّلبة بقوةٍ أكبر، ولكن في الوقت نفسه انتشر عليها ظلٌّ من الألم واللطف.

وهكذا بدا القناع وكأنه يعكس بصمة اليأس المجهول الذي وضع سلاح الموت في يد هذا الرجل الشريف.

صرخت الكونتيسة فجأةً وهي ترفع يديها إلى جبينها: «يا إلهي! وابنه؟!».

لم يفكر أحدٌ في ذلك بعد. تردّد صدى هذه الكلمة كجرسِ الخراب. في الواقع، يعرف الجميع الحبَّ العميق الذي يجمع بين هذين الرجلين؛ في كل مرةٍ يمرُّ الجنرال فيها عبر القرية ويتحدّث مع أحد الفلاحين، يتردّد اسمان على شفتيه: اسم زوجته واسم جورج؛ "ضابطي الوسيم!" كما كان يسمّيه مبتسماً.

حتى اللحظة، لم يُصدم الجميع بالفاجعة بعد؛ فما يزال هناك قلبٌ واحدٌ ينبغي كسره أيضاً. وكما لو أنها تلقَّت تداعيات هذا اليأس مسبقاً، انتحبَت الكونتيسة، ربما كانت أقل قدرةً على تحمل آلام الآخرين من ألمها الخاص.

في اللحظة نفسها، كما لو أن صرخة ماري كانت إشارةً متوقّعةً من القَدَر، ظهرَ ساعي البريد الرّيفيّ على عتبة الباب؛ رأى هذا المشهد المروّع وتوقف مذهولاً. قال له أحد الفلاحين بضع كلمات بصوتٍ منخفض؛ ثم خلع الرجل قبّعته، وأخرج رسالةً من حقيبته وسلّمها إلى السيد ماليريه قائلاً: «كانت للجنرال...».

نظرَت الكونتيسة إلى الظرف، وصرخَت: «إنها منه، إنها من السيد جورج...».

قال العمدة وهو يرتجف: «ومؤرّخة من مدينة بريست!».

عقَّبت الكونتيسة: «من بريست...! ولكنه عاد... سيكون هنا غداً... أو ربما اليوم!». ثم ارتجفت كما لو أن البرد الجليديّ أصابها.

بحثَ السيد ماليريه عبثاً عن عبارات العزاء التي يفتقر إليها، فقال بصوتٍ أجشٍّ: «لماذا لا تقرأ السيدة؟».

لقد كانت جيرمين هي التي اقتربت أكثر عندما سمعت اسم جورج.

سألت السيدة دي مورلين بخجلٍ وهي تستجوب العمدة بنظرتها: «ولكن... هل لديّ الحق؟».

ردَّ العمدة: «نعم... ألم تكوني رفيقة صديقنا المسكين ومحلَّ ثقته؟».

أخذت الكونتيسة الرّسالة، ومزَّقت الظرف بأصابعها المرتجفة. وبعد أن ألقت نظرةً على محتواها، قالت بحزنٍ: «غداً... سيكون السيد جورج هنا». ثم أعادت الرسالة إلى العمدة الذي قرأها بدوره. لم تحتوِ إلا على بضعة أسطرٍ يعلن فيها الضابط عن عودته بحماسةٍ شبه طفوليةٍ. لو لم تمنعه خدمته، لغادر من دون أن يضيع لحظةً واحدةً، إذ كان يتوق إلى عناق والده، كما قال، وصديقته؛ زوجة أبيه الجميلة والطيبة.

سألت جيرمين: «سيأتي غداً، أليس كذلك؟».

أجاب العمدة: «غداً... يؤكد السيد جورج ذلك».

ثم أضافت جيرمين بصوتٍ هادئٍ حتى لا يسمعها أحدٌ: «وأنا سأنتظر...».

اضطرَّت السيدة دي مورلين للردّ على الأسئلة التي وجّهَها إليها القضاة الذين قَدِموا فور سماعهم نبأ الكارثة. كانت النقطة الهامة هي معرفة ما هي تصرفات الجنرال الظاهرة قبل ليلة الفاجعة! هل أنْبَأَت كلماته وبعض أفعاله، بهذا القرار الكارثيّ؟

أجابت الكونتيسة ببساطةٍ، وبصراحةٍ واضحةٍ؛ حتى وقوع هذا الانفجار المشؤوم، كانت تعلم، ويمكنها أن تؤكد أن الجنرال لم يكن فريسةً لأيّ حزنٍ. لكنها أضافت أنه خلال المساء السّابق أصرَّ على التحدث معها لفترةٍ طويلةٍ... وبقيا معاً حتى ساعةٍ متأخّرةٍ من الليل. بدا السيد دي مورلين حزيناً ومشغول البال؛ تحدثَ عن ابنه، ومستقبله. عندما عادت الكونتيسة إلى غرفتها، دقَّت الساعة الثالثة. كانت مرهقةً من التعب ونامت على كرسيٍّ بذراعين في المكان نفسه الذي وُجِدَت فيه في الصباح.

أضافت السيدة دي مورلين: «لكن بصدقٍ، أؤكد أن الجنرال لم ينطق بكلمةٍ واحدةٍ يمكن أن تجعلني أتوقّع هذه الكارثة الرهيبة»، ثم صرخت مرةً أخرى بلهجةٍ يائسةٍ: «لو أنه قال كلمةً واحدةً فقط، هل كنت سأتركه للحظةٍ واحدةٍ، هو الذي كان أكثر من زوجي، وفي الوقت نفسه مُنعمي وأبي؟!».

قال أحد القضاة وهو ينسحب: «إنه لغزٌّ...!».

ما لم يشهده أحدٌ، هو أنه في تلك اللحظة، كما لو أن قلب جيرمين يوشك على الانفجار، هربَت إلى غرفتها، وهناك وحيدةً، تغلّبَ عليها نوعٌ من الغضب المجنون، ومدَّت قبضتها وكأنها أرادت ضرب شخصٍ ما عبرَ الجدار، وهي تصرخ: «امرأةٌ بائسةٌ! إنه الابن مَن سينتقم لأبيه...!».

[3]

ظلَّ انتحار السيد دي مورلين غامضاً. كان رجلاً طيب الأخلاق، يتمتع بعلاقاتٍ طيبةٍ، ويُظهر البهجة اللطيفة. قال الفلاحون عنه: «يبدو أنه سعيدٌ جداً بالحياة». في الواقع، كانت وفاة زوجته الأولى هي الألم الحقيقي الوحيد في هذه الحياة المقسّمة بالكامل بين واجباته المهنية ومشاعر العائلة.

هرعَ أصدقاؤه - يمكنه أن ينادي بهذا الاسم كلَّ مَن عرفه - إلى بتيت تويلري عند أول نبأٍ عن الكارثة. كان أحدهم، وهو رجلٌ عجوزٌ، رفيقه السابق في السلاح؛ القائد دي سامريويل، يبكي كالطفل ويصرخ: «هذا عملٌ جنونيٌّ! منذ ثلاثة أيام فقط حدثني دي مورلين عن سعادته، وكان فرحاً بشرحه لي – بحماسة عاشقٍ يبلغ من العمر عشرين عاماً – عن الكمال الجديد في الطِباع والقلب والعقل الذي يكتشفه كل يوم في تلك التي تحمل اسمه».

كانت السيدة دي مورلين، من قِبَل هؤلاء الذين يشعرون بالأسف الشديد، محلَّ تقديرٍ عميقٍ، ومودّةٍ أبويّةٍ تقريباً؛ لأنها بدَت كطفلةٍ وسط هذه الرؤوس الرّمادية. حاولَ الجميع بصراحتهم القاسية أن يقدموا لها بعض العزاء. أما هي، فظلّت شاحبةً بشفتين ضيّقتين، وفي عينيها نوعٌ من الذعر، وتردّد: «كان طيباً جداً... طيباً جداً!».

ولكن بالنسبة إلى جميع الأسئلة الموجّهة إليها حول الظروف التي سبقت انتحاره، لم يكن بوسعها سوى أن تكرر إجاباتها الأولى. كانت تجهل كل شيءٍ، ولم تسمع الجنرال يغادر غرفته.

سُئِلَت: «إذاً، لا كلمة ولا إشارة يمكن أن تجعلك تتوقعين هذا القرار المجنون؟».

أجابت: «لا شيء!».

لقد حُثّت على استحضار ذكرياتها عديمة الأهمية. لأنه، ما لم نفترض أن الجنرال فقدَ فجأةً مفهوم الأمور الحقيقية في نوبة الهذيان المفاجئة هذه، كان من المستحيل حتى في أفضل عملٍ قابلٍ للاخفاء، ألا تلاحظ امرأةٌ مخلصةٌ ومنتبهةٌ جداً مثل الكونتيسة أيّ غرابةٍ ربما لم تعلّق عليها أيّ أهميةٍ في اللحظة نفسها التي حدثت فيها، ولكن استحضارها سيسلّط بعض الضوء على هذا الغموض المزعج.

هزَّت الكونتيسة رأسها وقالت: «لا أعرف شيئاً!».

مع ذلك، احتراماً للسيدة دي مورلين وأيضاً بسبب العودة السّريعة لوريث الجنرال المباشر - إذ أرسلَ إليه السيد ماليريه برقيةً لتسريع وصوله - فقد امتنع قاضي الأمن عن المُضي في الإجراءات القانونية لوضع الأختام. ودخلَ غرفة الميت برفقة عمدة البلدة والكونتيسة.

كانت غرفةً كبيرةً، مضاءةً بنوافذ كبيرةٍ، تتدفّق من خلالها أشعة الشمس السّاطعة ببهجةٍ. يوجد بها قليلٌ من الأثاث. اعتاد الجنرال أن يقول: «هذه خيمتي؛ لدي عشّي، غرفة زوجتي».

كانت هذه الغرفة، ببساطتها العسكرية الشديدة، مليئةً بجميع أنواع الأسلحة، وكان من السهل رؤية المكان الذي انتزع منه المنتحر سلاحه، كذلك البارود والرصاص على الطاولة. كان من الواضح أن المسدس قد لُقّمَ عن عمدٍ وبعنايةٍ. خلاف ذلك، لم يكن هناك أيّ فوضى؛ لا توجد أيّ رسالةٍ على مكتب السيد دي مورلين، لا شيء يشير إلى أنه فكّر في اتخاذ بعض الترتيبات النهائية. كما لوحظ أن بعض الأوراق - رسائل بلا شك - قد حُرِقَت مؤخّراً. تأجّجت النار بحيث لم يتبقَّ أكثر من كتلةٍ سوداء صغيرة تتناثر غباراً. لم ينم الجنرال في فراشه، وهو ما يتوافق مع قصة زوجته التي أبقاها معه حتى وقتٍ متأخّرٍ من الليل.

ماذا كان موضوع حديثهما؟

لم يكن بمقدور السيدة دي مورلين سوى تقديم إشاراتٍ غامضةٍ: إذ تمَّ التطرق إلى جميع أنواع الموضوعات، من دون أن يبدو لها أيٌّ منها له أهميةٌ خاصةٌ بالنسبة إلى زوجها. كانت شموع الشمعدانات قد احترقت حتى آخر قطرةٍ من الشمع. من الواضح أن السيد دي مورلين خرج من دون أن يفكر في إطفائها؛ أو بالأحرى، أراد أن يظلّ الضوء مُشاهداً بواسطة زوجته من الخارج، التي تقع غرفتها في الجناح الخلفي، وتواجه غرفته تقريباً.

نظراً لأن خدم المنزل بأكمله يتكوّن فقط من جيرمين العجوز التي تشغل غرفةً في العليّة، وبستانيٍّ يعمل بصفته سائسًا ينام في الإسطبل، كان من السهل فَهمُ كيف تمكّن الجنرال من عبور بوابة الحديقة من دون أن يراه أحد.

باختصار، لم تستطع هذه الملاحظات، على الرغم من دقتها، من تقديم أيّ إشارةٍ. بدا اللغز عَصيَّ الحلِّ.

كانت العجوز جيرمين تظهر من حينٍ لآخر على عتبات الأبواب، صامتةً، وجهها متعبٌ. وتابعت، من دون المشاركة، أحداث التحقيق. لكنها تستشير باستمرارٍ ساعةً فضيّةً كبيرةً مشدودةً في حزامها، وتسأل أحياناً بصوتٍ منخفضٍ ما إذا كانت المسافة من بريست إلى باريس بعيدة جداً؛ كانت تنتظر جورج.

فكّرَ الآخرون أيضاً في ذلك الابن الذي وصلَ إلى الأراضي الفرنسية مملوءاً بالفرح والأمل، والذي ينتظره الحزن على عتبة منزل والده. ما بدا غريباً بالنسبة إلى الجميع هو أن الجنرال لم يترك لنفسه أو لشريكته بضعة أسطرٍ من الوداع النهائي. لاحظ السيد دي سامريويل أن صورة جورج التي كانت معلّقةً بجوار سرير والده، انفصلت عن الحائط وسقطت على الأرض. وفي سقوطها، تحطّم الزجاج. فهل كان هذا إذاً أحد تلك العلامات الغريبة التي تنسبها الخرافات إلى الأشياء الثابتة كظهوراتٍ نبوئيّةٍ؟

مرَّ اليوم ببطءٍ. جاء الفلاحون واحداً تلو الآخر لتحيّة الميت؛ ووجدَ كل واحدٍ في قلبه كلمة أسفٍ متعاطفٍ. نجحَ هذا الرجل في كسب محبة الجميع، وكان هناك حدادٌ حقيقيٌّ بالفعل.

حلَّ الليل. أرادت الكونتيسة البقاء بجوار الرجل الذي أحبته. غير أن السيد دي سامريويل حصل على إذنٍ بقضاء الليلة في المنزل. كان يعرف جورج وأراد أن يكون هناك لحظةَ وصوله.

لم تصر جيرمين على أن تقدّم تلك الوداعات الأخيرة لسيّدها. قدَّر الجميع حزنها، وفكروا: «لن تنجو المرأة المسكينة بعد وفاته».

في الواقع، بدا الأمر كما لو أن الموت قد وضع مخالبه المرعبة على هذا الوجه المتجهّم، حيث لم يبقَ منه سوى عينين محمومتين تطلقان بين الحين والآخر ومضاتٍ مظلمة.

كانت طويلةً جداً وحزينةً جداً ليالي السهر الجنائزيّة.

ظلَّت الكونتيسة بمفردها، وركعت بجوار الجثة مسندةً جبينها الملتهب على يدها الجليدية، وبكت لوقتٍ طويلٍ. ثم نهضَت وفي شِدّة حزنها وأسفها، قبّلته على جبينه. تألّقت عيناها ببريقٍ من الحبِّ الهائل، ولو رصدها أحدٌ ما في هذه العزلة، لرأى أنها تمدُّ يدها نحو الميت، تتمتم بكلماتٍ عصيّة الفهم، كما لو أنها تنطق بقَسَمٍ ما.

[4]

أُرسلت برقيةٌ في وقتٍ مبكرٍ إلى بتيت تويلري. توسّل فيها جورج دي مورلين بتأجيل مراسم الجنازة. سيصل إلى فيتري في فترة ما بعد الظهر. مسارُ الرحلة طويلٌ من بريست إلى باريس، وعلاوة على ذلك، لا توجد قطاراتٌ سريعةٌ في معظم المسار.

تمَّت الموافقة على طلب جورج بناءً على طلب السيدة دي مورلين. كان المنزل مغطى بالأسود، وما يزال الجثمان الموضوع في التابوت مكشوفاً، ولم يفقد وجهه شيئاً من صفائه. بل على العكس من ذلك، فقد وضعَ الموت على ذاك القناع هذا الزنجار الباهت الذي هو علامة الخدَر الأسمى. الألم أو الرعب، تلاشى كل شيء، وبقي الهدوء الشديد للنسيان؛ وربما للمغفرة.

لم تظهر جيرمين مرةً أخرى. لا شك أنها سلَّمت نفسها بالكامل لألمها، أو بالأحرى ما لم يعرفه أحد، للتأمل في أيّ انتقامٍ يعتصر قلبها، فحبست نفسها في غرفتها.

اكتفَت السيدة دي مورلين التي لا تكلّ، مدعومةً بحمى الآلام الشديدة، بالسيد القائد دي سامريويل للعناية المتعددة التي تتطلبها المراسم الجنائزية التي كانت قيد الإعداد.

لم يكن للجنرال أقارب. لم يأتِ أيّ جشعٍ ليلقي بظلاله المتنافرة في هذا الانسجام من الإخلاص المحزون. في كل لحظة تتوقف العربات أمام البوابة، ويمكن رؤية ضباطٍ، بعضهم بزيٍّ برجوازيٍّ، وآخرون بزيّهم الرسميّ، يقدّمون لرفيقهم القديم تحية الاحترام الأخيرة. أُرسل إخطارٌ إلى ساحة باريس في الوقت المناسب، ووصلَت الفصيلة التي سترافق

رفات الجنرال إلى مثواه الأخير في الساعة الثالثة. كان الفناء مليئاً بالناس، ومع ذلك لم يرتفع صوتٌ واحدٌ. وضعَت غرابة هذه النهاية المفاجئة والمأساوية قبضةً مؤلمةً على صدور الجميع.

تساءل الناس بأصواتٍ منخفضةٍ. مرَّ السيد دي سامريويل عبر الصفوف المزدحمة، مقدّماً توضيحاتٍ موجزةً، وعزا هذا القرار الذي لا يمكن تبريره بظروفٍ أخرى إلى نوبة حمى شديدة، أو إلى اضطرابٍ دماغيٍّ.

فجأة، سادَ صمتٌ عظيمٌ. سُمِعَ صوت عَدو حصانٍ على الطريق. دُفِعَ الحيوان بعنفٍ متهورٍ تقريباً، وكاد أن يسقط أمام الباب.

كشفَ الجميع عن وجوههم؛ لقد كان جورج دي مورلين، كان هذا الابن.

سارع السيد دي سامريويل لاستقباله واحتضنه. اتكأ الشاب الذي كانت ملامح وجهه تنضح تحت لونه المُسمّر تلك الطاقة التي تعطيها عادة حالةُ التعرض للخطر، على كتفِ صديق والده العجوز، ولم يعد يساوره الشكّ، وضربه الواقع المذهل بقوةٍ في قلبه بوضوح التحضيرات الجنائزية، فبدأ يبكي كطفلٍ.

غمغمَ القائد: «الشجاعة، يا بني، الشجاعة!».

هل الشجاعة ممكنةٌ؟! مرَّت ثلاث سنوات منذ أن ودّعَ جورج والده، وفي تلك السنوات الثلاث، لم يمر يوم من دون أن يفكر في العودة. بدا وكأن هناك رابطاً بين هذين الرجلين

غير رابط الدم: كان كصداقةٍ أخويّةٍ تجعلهما يتقاسمان الأفراح والآلام والآمال وخيبات الأمل.

عندما علم جورج بخطط الجنرال، لم يتردّد، كما نتذكر، في الموافقة عليها؛ لم يمس قلبه لحظةً الغيرةُ أو الخوف من أن يحبّه والده بشكلٍ أقل. لقد كان قلقاً في كثيرٍ من الأحيان بشأن هذه العزلة التي أجبرته واجباته كبّحارٍ على إدانة والده؛ إذ يعرف أفضل من أيّ شخصٍ آخر هذه الشخصية التي، بكل طاقات الجندي، تجمع بين نقاط ضعف الإنسان؛ لقد رأى والده مكسوراً بوفاة والدته. كان يعلم أنه بفقدانه رفيقته المحبوبة منذ فترةٍ طويلةٍ، ظلَّ الجنرال كمسافرٍ ضلَّ طريقه، وتحوّل بقلقٍ إلى آفاق الأرض الأربعة، ولم يعد يعرف في أيّ اتجاهٍ يجب أن يمضي قُدماً، وأحياناً يسقط على الأرض، محبطاً ومنهكاً.

على الرغم من أن قوة السيد دي مورلين المعنوية قد انتصرت في هذه الأزمة الأولى، فإنه خشِيَ تدريجياً من أن يؤدي الملل والكسل إلى تقويض حياته. ظهرَت ماري ديلتور فجأة في حياته، ومدَّت يدها لمساعدته على العيش بشكلٍ أفضل. من دون أن يعرفها إلا من خلال رسائل الجنرال العاطفية، إلا أن جورج خمَّن أن هذه المرأة الشابة الجميلة كانت تستسلم، من خلال إحدى تلك الأعمال الخيريّة الدقيقة التي تحتفظ القلوب العظيمة بسرّها لعملِ الخلاص والقيامة. ومن أعماق وجدانه كرَّسَ لها جورج احتراماً ممتناً عبّرَت عنه، وكرّرَته بانتظامٍ في رسائله، تلك الكلمات التي كان وقعها لطيفاً على قلب الجنرال.

عندما كان يجيب ابنه، شرحَ بالتفصيل، برضا رجلٍ سعيدٍ، بهجة هذه الحياة الهادئة المتجددة دائماً، وكل ذلك بإشراقة ابتسامة زوجته الشّابة. أعلن جورج عودته الوشيكة، ومنذ ذلك الوقت، لم يصله أيّ خطاب من والده؛ كان حريصاً على أن تطأ قدماه الأراضي الفرنسيّة، ومستعداً لطلب إجازة لبضعة أشهر يقضيها بين هذين السعيدين اللذين سيطلب منهما حصةً من سعادتهما.

والآن، على هذه الآمال التي احتضنها زمناً طويلاً، والتي نمَت واستحوذَت على كيانه بأكمله، سقطَت، ثقيلةً وقاسيةً، هذه البرقية من السيد دي سامريويل: «انتحر الجنرال دي مورلين! إذا كنت ترغب في رؤيته مرةً أخرى، فأسرع!».

انتحار؟! ضربت هذه الكلمة رأسه كالصاعقة. أيّ غموضٍ رهيبٍ من الألم واليأس كُشِفَ عنه فجأة؟!

شعرَ جورج وكأنه أصيب بالجنون، ولم يفكر في ذلك بعد. انتهت هذه الرحلة السّريعة بإصابته بالحمى. وتسببت هذه المفاجآت الرهيبة بنوعٍ من السَكَر في الدماغ يخدّر الفكر. صار يدوي في رأسه ذلك الطنين المشؤوم الذي تلقيه العاصفة في أذنيّ البحّار. لم يشك به ولم يعد يصدّقه أيضاً. في الواقع، كانت هناك أوقاتٌ ينسى فيها سبب معاناته، ولم تستيقظ الذكرى الرّهيبة والمؤلمة إلا عند وصوله إلى باريس. ركض إلى أحد أصدقائه، وامتطى حصاناً، ثم انطلق وهو يعدو محفّزاً حصانه النازف، مواصلاً حلمه المذهل... والآن فجأةً، مكسور القلب والجسد، شرع بالبكاء...

هل كان يدرك كيف عبرَ الدرجات؟ وكيف سار عبر تلك الغرفة الكبيرة المضاءة بشعاعٍ شاحبٍ يتسلل عبر الستائر نصف المغلقة؟ رأى التابوت المفتوح، والوجه الشاحب والثابت... محزوناً، مهزوزاً حتى أعماق كيانه، ولم يفكر في تقبيله. كان على السيد دي سامريويل أن يدفعه، وأن يضعه، إذا جاز التعبير، فوق هذه الجثة. لذلك بقي لدقائقَ عدة - يعاني قرناً من اليأس - وشفتاه ملتصقتان بجبينٍ من الرخام... أخيراً، نهض ونظر حوله، وقفت السيدة دي مورلين جانباً ملفوفةً بالظلّ، مغطاةً بحِدادها. نظرَ إليها لحظةً بفضولٍ... اقتربت منه بيدٍ ممدودةٍ، ومن هذه اللفتة البسيطة خمَّن من تكون هذه المرأة، وتذكّرَ مدى حبِّ والده لها، ومن دون أن يرى شبابها، ركع أمامها قائلاً: «أمي! أمي!».

هي أيضاً، ذرفَت دموعاً غزيرةً على وجهها، وفي نظرتها المثبّتة على هذا الابن يعبرُ شعاعٌ منهكٌ ويائسٌ... ضغطَ على يديها وكرر بفرحٍ مريرٍ هذا النداء كابنٍ...

شعرَ السيد دي سامريويل بالخوف؛ كانت هذه الآلام تقترب من الجنون كانت هادئةً وحميميةً جداً. فأشارَ إلى الرجال الذين ينتظرون، ووضع يده على كتفِ جورج، قائلاً: «حان الوقت. قل الوداع الأخير لوالدك...».

وقفَ جورج بشكلٍ مستقيمٍ، وومضَت فكرةٌ مفاجئةٌ في رأسه، فصاح: «لا! لا! ليس بعد! أريد التحدّث معه بمفردي! امنحوني بضع دقائق معه...». وبلفتةٍ رائعةٍ واستبداديةٍ، أبعدَ كل من كان حوله...

فهِمَت السيدة دي مورلين ذلك. كانت هذه التّنازلات ضروريةً؛ ولو أنها جنونيةٌ؛ كان لا بد من تخفيف هذا اليأس من خلال العمل. أخذت بلطفٍ يد السيد دي ساميريويل واقتادته بعيداً. صمتَ الجميع وأطاعوا هذا الأمر الصامت، ثم أُغلِقَ الباب...

وقفَ جورج بالقرب من التابوت المفتوح، وقال بصوتٍ مبحوحٍ: «أبي، أنا ابنك.. أجبني..! يقولون إنكَ أقدمت على الانتحار.. لماذا؟ أريد الانتقام لكَ... عليكَ أن تخبرني بكلِ شيءٍ...».

انحنى على الجثة، واقترب لدرجة أن وجهه لامس الوجه البارد؛ فوق الجفنين اللذين سمحا لنظرة الموتى الباهتة أن تتسرب، مررَ نظرته الحيّة التي تستجوب وتبحث في أعماق هذا الدماغ الخامل.

- قل لي... أيُّ شبحٍ وقفَ أمامك فجأة؟ أيّة رؤيةٍ رهيبةٍ راودتك في أثناء هذا الخوف المفاجئ والمميت؟ أنا أعرفك... كنت تمتلك شجاعة النفوس القويّة... ولكي تُهزم، لا بد أن القدر قد ضربك بأقسى ضرباته... ماذا رأيت وجهاً لوجه؟ جريمة! من ارتكبها؟ أيّ عارٍ شعرَت به فجأة، وأردتَ أن تنتزعه من أشلاء لحمك وحياتك؟ أبي! أبي! لقد عاقبت نفسك على خطأ شخصٍ آخر... من هو هذا الآخر الذي سأسحقه بدوري!

اهتزَّ جسده بأكمله، ووضع يده على ذلك الصدر الذي توقف القلب عن النبض فيه، وقال: «بشرفي كبحّارٍ، وبذكرى والدتي، أقسم لكَ يا أبي الحبيب، أنني سأتحدى كل عقبةٍ لأصل إلى العدوّ الذي ضربك، الوضيع الذي وضع في يدك سلاح الموت... أبي، أقسم...

أقسم أن أقتل من قتلَك...!»، ثم في يأسٍ ضغطَ أظافره في شعرَه وهو يصرخ: «ولكن مَن؟ مَن؟».

حينها، في عمق الغرفة المظلمة رُفِعَت ستارةٌ، وانزلقَت امرأةٌ جامدةٌ كالشبح، ملتوية الفم بسخريةٍ غاضبةٍ، باتجاه جورج دي مورلين... فتعرّف عليها؛ كانت رفيقة والده العجوز، صديقة الأزمان الغابرة، الخادمة التي احتضنته بين ذراعيها كمربّية... مدَّ يديه نحوها... فانحنت جيرمين بإصبعٍ على شفتيها، نحو جورج دي مورلين، وقالت له بصوتٍ بالكاد مسموع: «تحلى بالصبر يا بني! تحلى بالصبر! هذا المساء، ستعرف كل شيء...».

نظرَ جورج إليها مرعوباً من هذا الغموض الذي ظهر كردٍّ فوريٍّ على السؤال الذي وجّهه إلى الجثة، وقال: «ماذا؟! جيرمين! أنت تعرفين؟!».

- كل شيء...!

- وستشيرين إليّ عن الجاني؟

- وستعاقبه؟

- لقد أقسمت...

قالت مرةً أخرى: «اذهب وابكِ عند قبر والدك، وهذا المساء... عندما ينام الجميع، سأسهر... أنا...».

فتحَ السيد دي سامريويل الباب بتكتمٍ. لقد اختفت جيرمين، وكان جورج أكثر بياضاً من الجثة...

[5]

عندما تزوج السيد دي مورلين للمرة الأولى، كان ضابطاً شاباً، فخوراً بقامته المضغوطة بشكلٍ يائسٍ في الزي العسكري، محبّاً أن يجعل كتّافتيه تتلألأن كنجومٍ مشعّةٍ في السماء الضّبابية للمدن الحاميات، يتقافز منحنياً تحت الشرفات وأمام الستائر نصف المفتوحة.

في أحد الأيام، فكّرَ في تكوين عائلة. في الحقيقة، كان واقعاً في الحبّ بشكلٍ خاصٍ لأنه يعلم أنه محبوبٌ. بامتلاكه لثروةٍ جميلةٍ، كان من السهل عليه أن يتّبع دافع قلبه، حتى لو كانت المرأة المُختارة فقيرةً. لكن تبيّنَ أنَّ مصالح وضعه تتماشى بشكلٍ أفضل مع تطلّعاته الزوجية. جلبَت بيرت دي شاليه؛ من عائلة قدامى نبلاء إيل دو فرانس، مهراً بمئة ألف فرنكٍ. كانت مخلوقةً ساحرةً، ربما دميةً صغيرةً، ولكنها مفعمةٌ بالحيوية، ومبهجةٌ، وروحيّةٌ في بعض الأحيان، تتدلى على عنقها تلك الضفائر المجنونة التي تثير العقول، وترتسم على شفتيها ابتسامةٌ تفتح النفوس مع تفتّحها بنفسها.

السيد دي مورلين؛ رجل طاقةٍ وإرادةٍ، لم يكن قديساً تماماً، بل كان من السهل، عند تصفّح كتاب حياته المتجوّلة المفكّك، العثور على كثيرٍ من الصفحات التي، وفقاً للتعبير الشائع، لن تسمح الأم لابنتها بقراءتها بسهولةٍ. لكن القلب كان شاباً، لنقل حتى ساذجاً. هذا الحبُّ البريء رفع من احترامه لذاته: بعد أن تيتّم مبكراً شعرَ بالحنين إلى العائلة،

وعندما يهرب من المقهى واجتماعات الرّفاق، يجد نفسه في المساء، تحت ضوءٍ هادئٍ يتساقط من عاكس مصباحٍ مُتحفّظ، بجانب طاولةٍ مستديرة محاطةٍ بالسيد دي شاليه؛ وهو نبيلٌ عجوزٌ عابسٌ قليلاً، فخورٌ جداً، لكنه في النهاية رجلٌ طيبٌ، ثم السيدة دي شاليه التي تذكّر شرائطها الناعمة المزخرفة بفخامة نساء القرن الماضي، وأخيراً بيرت التي تحمرّ خجلاً تحت نظراته الناريّة، يشعر السيد دي مورلين بفرحٍ غير معروفٍ، ولم يكن من الممكن أن يُسمح لأحدٍ بالتحدث بالسّوء عن الحموات والأسرة من دون عقابٍ في حضوره. النقطة الأخيرة، والأكثر خطورة؛ في إحدى الأمسيات الخريفية الجميلة، في ظل أشجار الحور أو الزّان (نوع الشجر لا يفيد في الأمر)، تجرّأ السيد دي مورلين على الإمساك بيدٍ لم ترفض كثيراً، ولمسَت أطراف شفتيه بلطفٍ جبيناً احترق من الحياء والدهشة، وتمتمَ ببضع كلماتٍ: «آنسة بيرت، هل تصبحين زوجتي؟».

قال هذا أو شيئاً آخر؛ كانت الرسالة واضحةً.

ونظراً لعدم تلقّيه أيّ ردٍّ – وهو ما يُعتبر في فن الحبّ أكثر الخطابات بلاغةً - في اليوم التالي، ذهبَ السيد دي مورلين إلى كولونيله بشكلٍ صارمٍ كما لو أن الأمر يتعلق بمبارزةٍ أو دين قمارٍ، وقال له: «الفوج هو عائلتي؛ أنت والدي! من فضلك اذهب إلى السيد دي شاليه واطلب باسمي شرف مصاهرته».

لم يتردّد الكولونيل، وهو الصديق القديم لمورلين، في التّحدث بصدقٍ والانتقاد بأسلوبٍ وقحٍ؛ حتى إنه قرصَ أذن هذا الشاب طويل القامة الذي "كاد أن يرتكب حماقةً"، ولكن هذا الشاب طويل القامة تمرّد على الفور.

قُدِمَّ الطلب، وتمّت الموافقة عليه، ونُشِرَت إشهارات الزواج، ووجّهت التهاني السّاخرة التي نعرفها إلى الملازم الشاب، وتمَّت ترقيته إلى رتبة نقيبٍ ومُنِحَ الأوسمة بهذه المناسبة. باختصارٍ، أصبحت بيرت دي شاليه تحمل الآن لقب الكونتيسة دي مورلين.

عاش زوج بيرت في حلمه العسليّ لمدة خمسة وعشرين عاماً. كان هناك ظلٌّ واحدٌ فقط: لم يصبح أباً إلا بعد خمس سنواتٍ من زواجهما. كانت السعادة أعمق بسبب طول الانتظار. حدثَ في كثيرٍ من الأحيان، وفقاً لرغبة الزوج المحبِّ، أن متطلّبات الخدمة أجبرته على التغيّب لأشهرٍ عدّةٍ؛ لكنه كان يتمتع بمهارةٍ فائقةٍ في خلق فرص الهروب، ويعود فجأة ويعانق زوجته ثم يغادر مرةً أخرى... وعندما أصبح لديه ابن ليعانقه، يظل بضع دقائق إضافيةً، ويرحل محمَّلاً كنوزاً مضاعفةً من الفرح.

أُصيبَت بيرت بالمرض في سنّ الثلاثين تقريباً. أصبحت أضعف، واضطرت تدريجياً إلى التخلي عن رعاية المنزل. وهنا كانت جيرمين عوناً كبيراً لها. كانت أرملة جنديٍّ قُتِلَ في شبه جزيرة القرم. تحمّلت آلامها بكرامةٍ: لم يكن لديها أطفالٌ، فاعتبرت ابن سيّدها ابناً لها. كانت نموذجاً حيّاً للنّزاهة، وسرعان ما تماهت مع أولئك الذين تخدمهم بشكلٍ كاملٍ لدرجة أنها تعاملت مع مصالحهم بشكلٍ أفضل مما ستفعله بيرت التي ظلّت، سواء بسبب طفولتها أو كسلها الوراثي، خائفةً من المسؤوليات. كانت جيرمين مدبرة منزلٍ ذات نزاهةٍ مطلقةٍ وتفانٍ لا يتزعزع. وكانت فخورةً بالخدمات التي تقدّمها؛ فهذا التفويض

الذي أوكل إليها كبّرها في نظرها، ولتنفيذه بشكلٍ أفضل سعَت - من دون نيّةٍ سيئةٍ - إلى توسيع نطاقه أكثر.

تركَت بيرت ذلك يحدث. أصبحت حزينةً أكثر فأكثر، ولا شك أنها أدركت حالة ضعفها. تنبّأت بالفعل بنهاية حياتها، وأبقَت عينيها مثبتتين بعنادٍ نحو القبر الذي يناديها. يمكن أن يُقال أحياناً إن هذه الطبيعة التي كانت نابضةً بالحياة سابقاً، مكسورةٌ اليوم، تنحني أمام ألمٍ سرّيٍّ ونازفٍ دائماً.

لم يفارق الجنرال بيرت أبداً، عندما رآها تتلاشى ببطءٍ، ضمَّ الطفل المجدّد لحياته بقوةٍ أكبر إلى صدره. تغيّرت شخصية المرأة المسكينة بشكلٍ ملحوظٍ، بدَت وكأن قدراتها تتغير. عانَت من نوباتٍ نفسيّةٍ، وأزماتٍ مرعبةٍ، دفعَت خلالها زوجها وابنها بعيداً، وهي في حالةٍ من الارتباك، تصرخ بكلماتٍ عشوائيةٍ وعباراتٍ غير مفهومة. إنَّ عذابات الشخص المحبوب هذه تستنزف أشجع الناس.

حين اقتربت ساعة وفاتها، كان الجنرال يقف متكئاً عند أسفل سريرها، يبكي منكسراً، ويغمرها بنظرته متمنّياً أن تدفّئها، جاء جورج وركع بجوارها بورعٍ. حاولت بجهدٍ شديدٍ أن تنهض، أمسكت به وجذبته إلى صدرها. وفي الوقت نفسه صرخت لزوجها: «إنه لي! إنه لي! أمنعك من كرهه! جيرمين، دافعي عنه! دافع عني!».

كانت لحظة جنونٍ نهائيٍّ. سقطت إلى الوراء بشهقةٍ مروعةٍ، ميتة!

عاملت جيرمين ابن سيدها بشكلٍ غير رسميٍّ. اكتسبت هذا الامتياز بجدارة؛ إذ أخفَت ذكرى الميتة في أعماق قلبها، وبقسوةٍ كقبرٍ منحوتٍ في الصخر، كانت تعبدها هناك. ومن

هنا جاءت كراهيتها للغريبة؛ ديلتور، كما أسمتها. نظراً لعدم تمكّنها من اتهامها بقتلِ بيرت، بدَت وكأنها ترغب اليوم في تحميلها الانتحار غير المبرر للسيد دي مورلين...

سمع جورج كلامها. ولكن، بعد أن عاد على الفور إلى دوّامة الواقع، سار بخطا غير مستقرّة خلف جثمان والده، عاقداً حاجبيه مع تقلصاتٍ مؤلمةٍ عند الدويّ الباهت لطبولِ الجنازة.

لحسن الحظ، لم يضطر إلى تحمّل التفاهات المزعجة. الجنود القدامى الذين جاؤوا لتحيّة رفيقهم رأوا الموت كثيراً بما فيه الكفاية ليعاملوه باحترامٍ. بالنسبة إلى الجميع؛ قضى السيد دي مورلين بسبب إحدى نوبات الحمى الشديدة التي تسبب في الدماغ انجذاباً مفاجئاً وغير واعياً نحو الموت. عند الدفن، شعرَ الجميع بذلك الفضول الغريب، وحاولوا - ولو لدقيقةٍ واحدةٍ فقط - سرقة سرّه. لم يكونوا مندهشين كما لو أنهم لم يواجهوا الأمر، وشعروا بالحزن أكثر وهم يفكرون في ألم الأرملة والابن، بدلاً من تفكيرهم في الجنرال الذي "أكمل فترة خدمته".

عندما حلَّ الليل انصرف الحشد. وجدَ جورج نفسه وحيدًا مع السيد دي سامريويل. هذا الأخير الذي أراد تحفيز هذا الألم الصامت، تحدّثَ عن الحدث الغامض. وسرعان ما استمع جورج إليه. وبما أنه في البداية لم يسمع جيداً، فقد كررَ له بعنايةٍ جميع ظروف هذه الكارثة. أجبره السيد دي سامريويل على التعبير عن رأيه ومواجهة الحقيقة وحلّ اللغز الجنائزي.

لم يحصل جورج على إجابة، وكذلك الآخرون.

أحبَّ السيد دي مورلين الحياة، مما جعل زواجه الجديد لطيفاً وسعيداً.

ما يزال جورج يحمل في محفظته الرسالة الأخيرة التي وجهّها والده إليه. قرأها الرجلان معاً مرةً أخرى. كانت تنبض ببهجةٍ صريحةٍ وعميقةٍ ومتجددةٍ. كانت هناك بين السطور، وتحت الكلمات ومضاتٌ من السعادة. ويمكن أن يشعر المرء أنَّ ابتسامة ماري دي مورلين هي التي أضاءت ربيع الشيخوخة هذا.

قادَ السيد دي سامريويل جورج إلى بتيت تويلري، ثم انصرف ووعده بالعودة في اليوم التالي، بعدما طلب منه الشاب ذلك. وجد جورج نفسه في هذا المنزل بمفرده مع السيدة دي مورلين التي احتلت فجأة محلّ والده. كانت لحظةً من الألم المأساوي بالنسبة إلى هاتين الرّوحين المقفرتين، ولم يكن لديهما الشجاعة للتساؤل.

خيّمَ الصمتُ المزدوج للموت والألم على المنزل. لم تظهر جيرمين؛ لا شك أنها تفكر في جورج الذي نسيها.

في الصباح الباكر، طلبَت السيدة دي مورلين المنهكة، الإذن بالانصراف. وكان هناك اتفاقٌ ضمنيٌّ بينها وبين هذا الابن على عدم إثارة أيّ أسرارٍ حتى اليوم التالي. فقط، عندما نهضت ماري لتتجه نحو غرفتها، قال لها جورج بهدوءٍ: «أمي، عانقي ابنك!». وكان هناك، في تنهيدةٍ مكبوتةٍ، تعبيرٌ عن الندم الشديد الذي تركه في هذين القلبين غيابُ رجلٍ صادقٍ.

نادى جورج الخادم وأعطى بعض الأوامر لوقتِ الصباح، ثم نزل إلى الحديقة. لم يشعر بالتعب بعد، ولم تهدأ الإثارة المفرطة بعد.

كان الليل العميق قد غمره الآن، وذكّره تكسّرُ الرمال تحت قدميه بالمقبرة التي يرقد فيها والده. حاول الوقوف من الصدمة التي أصابته. لأول مرة منذ ثلاثة أيام، خطرَت له فكرة ردِّ فعلٍ ضروري. بعد جهدٍ، تنفّس بشكلٍ أوسع وأطول، واستعاد سيطرته على أفكاره. مرَّت الريح الباردة عبر شَعره وأيقظت الإحساس بالخدَر في صدغيه. وكأن الحياة بدأت تعود إليه تدريجياً. استعاد أحداث الساعات القليلة الأخيرة واحدةً تلو الأخرى، وفجأة تذكّر كلمات جيرمين الغريبة.

بماذا كان يفكر بالضبط؟ وكيف لم تعد كلماتها إلى ذاكرته من قبل؟ ومن المؤكد أن انتحار والده كان واضحاً. لكن لم يعبّر أحدٌ عن سببٍ محتملٍ لهذا الفعل اليائس؛ الحمى، المرض! ومع هذا، كل شيء يثبت أنَّ اليد والعقل كانا هادئين في اللحظة المميتة؛ وضعَ الجندي المسدس على رأسه من دون أن يجفل.

قال صوتٌ مكتومٌ خلف الشاب: «ألن تأتي! أنا هنا!».

ارتجفَ، واستدارَ جورج فجأة. في ظلامٍ دامسٍ، وقفَت جيرمين خلفه طويلةً نحيلةً كشبحٍ غريبٍ... لوّحَ بيديه كما لو أنه يحاول دفع رؤيةٍ خيالية.

قالت وهي تتكلم بسرعةٍ وكأنها شعرت برغبةٍ محمومةٍ في التخلّص من الاتهام الذي يبتلي في روحها: «ألا تريد الانتقام لوالدك يا جورج؟ هل تركتَ نفسك أيضاً تنخدع بحلاوة هذه المرأة! إذاً، سأرحل... وأنا من سأتصرف... بمفردي...».

تخلّص جورج من سباته، وقال: «هذه أنتِ يا جيرمين؟ سامحيني! كنت أحلم، وأتبع إلى ما وراء الحياة من أحببته كثيراً... ماذا تريدين؟! أنا لا أفهمك...».

ردَّت جيرمين: «أوه! ستفهمني... كن هادئاً. سأكون موجزةً... وواضحةً».

أمسكَت بيده وجذبته، وقادته إلى نهاية الحديقة... كان هناك بستان من النباتات الخضراء، والسنديان والغار والتي تشكّل ستاراً... وراءه سياجٌ مرتفعٌ بضع أقدام يكشف عن أعماق الأفق، ثم قالت وهي تجبره على الجلوس على مقعدٍ بينما هي نفسها ظلَّت واقفة: «حسناً! انظر أين أنت... هذه نهاية الحديقة... هنا، نحن مختبئان! لا يمكن لأحدٍ أن يرى... ومع ذلك رأينا...!».

سأل جورج: «ماذا رأينا؟!».

وقفَت جيرمين وكأنها تريد أن تلقي من الأعلى بكلماتها المريرة التي تحترق على شفتيها: «رأينا...»، ثم واصلت بلهجةٍ جدّيّةٍ مهيبةٍ: «رأينا دخول العار... رأينا دخول اليأس... رأينا دخول الموت...».

جورج، على الرغم من أنه لم يرَ وجهها بوضوحٍ، أبقى عينيه مثبتتين بإصرارٍ على ذلك الشكل الأسود، حيث تسيل قطراتُ العرق على جبينها... ثم قال: «تكلّمي!».

- هل تريد أن تعرف لماذا انتحر والدك؟

- نعم، أريد ذلك!

- حسناً! ذلك لأن والدك ارتكب جريمةً في حياته...

- جريمة؟!

- نعم، جريمة ضعفٍ، وإهانة لذكرى ملاكٍ... وذلك في اليوم الذي أطلق فيه اسم الكونتيسة دي مورلين على واحدة...

قفزَ جورج، وقال: «اصمتي يا جيرمين! باسم والدي، أنا أمنعك من إهانة تلك التي احترمها والدي...».

ردَّت جيرمين: «باسم والدك، سأقول الحقيقة... هذه المرأة بائسة... عَرفت بدناءتها ونِفاقها أن تغزو، بل أن تسرق، المكان الذي احتلّته والدتك؛ أجلسَت العار والزنا في هذا المنزل الذي يُعتبر مرقداً للشرف... هل تفهم الآن لماذا حطّمَ الجنرال رأسه برصاصة مسدّس؟».

تمتعت هذه المرأة الريفية بنوعٍ من البلاغة الجامحة التي تنطق بضربات هراوة.

ترنّح جورج. كان الأمر أشبه بموتٍ جديدٍ عَلِمَ به فجأة: الصدمة الثانية كانت قاسيةً للغاية... سقط على المقعد، ودفنَ رأسه بين يديه وبدأ في البكاء بشكلٍ عصبيٍّ.

تابعت جيرمين بلهجةٍ أصبحَت حدّتها مخيفةً: «ابكِ! ابكِ! لكن تذكّر أنك أقسَمت على الانتقام لوالدك. ستطردها بعيداً، أليس كذلك؟ ستطردها كوحشٍ شريرٍ، معلناً الحقيقةَ بصوتٍ عالٍ... لأنها متكبّرة، ماري ديلتور الجميلة، ووقحة بالتأكيد...!».

حدثت ثورةٌ أخيرةٌ في وجدان هذا الابن الذي يحترم عواطف والده العميقة، وقال بجِدّةٍ: «لا أريد سماع أيّ شيءٍ. أنت مجنونة...! يقودك الألم إلى الضلال. غداً، نعم، غداً، سنتحدّث عن كل هذا مرةً أخرى».

كررَ هذه الكلمة: "غداً!"، ودفعَ جيرمين في اتجاه المنزل. لكنها حرّرت نفسها، ورفعت ذراعيها نحو السماء، كما لو أنها ستَلعن، وصرخت بقوةٍ: «ولكنك أصبحت جباناً!».

- جبان؟! أنا؟!

- إذاً، أنتَ لم تكن تحبّ والدك!

- لا تقولي ذلك! كان صديق روحي، كان ضميري الحيّ!

- حسناً! حسناً... لماذا لا تريد أن تسمعني؟

خفض جورج رأسه من دون ردّ.

ردَّت جيرمين: «لماذا؟ سأخبرك، أنا... أوه! كما تعلم، مازلتُ كما أنا... لم أكذب في حياتي أبداً، ولم أتمكّن من حملِ وزرٍ على قلبي في حياتي... أنت لا تريدني أن أتهم هذه المرأة، لأنك تعتقد أنها جميلة! آه! كل الرجال متشابهون!».

وبإشارةٍ منزعجةٍ، أمسكَ جورج بمعصميها، وقال: «أيتها التعيسة! أنت تجدفين... هذه المرأة هي زوجة أبي... لقد دعوتها أمي!».

- أنت؟! دعوتها... آه! هذا كثيرٌ جداً! جورج، أريدك أن تستمع إليّ، وستستمع إليّ... أولاً، لن أسمح لك بالمرور... سيكون عليك أن تضربني، وأنت لن تجرؤ، لأنه بعد هذا المخلوق

المقدّس، الطيّب جداً، النّقي جداً الذي نبكي عليه، بعد الكونتيسة الحقيقية، لا يوجد سوى أنا... أنا فقط، هل تفهم جيداً؟ أيها الجاحد! من حقك أن تدعوها أمك!

تراجع جورج أمام جيرمين. شعرَ بأنه مُسيّطَرٌ عليه؛ إذ استولى عليه نوعٌ من الرّعب الخرافيّ. كانت لدى الخادمة العجوز الآن عذوبةٌ لا توصف في صوتها: «هل تظن أنني سأؤذيك عبثاً! أنا أعلم جيداً أنه سيكون من الجميل أن تؤمن بنزاهة هذه المرأة، وبحبّها لوالدك. ولكن على أيّة حال، تعقّل يا طفلي؛ فكّر... لقد انتحر... إذاً كان تعيساً، الأمر بسيطٌ جداً... تعيسٌ بسبب مَن؟ لم يكن بسببي... أنت تعرفني! ولا بسببك أنت أيضاً؛ أفضل الأبناء وأكثرهم احتراماً. إذاً بسببها... بسبب سارقة الثروة واللقب هذه التي جعلت من نفسها كونتيسة... التي تحمل اسم أمك... آه! ولكن... ستستردّه منها، ستنتزعه منها... إنه لكَ، إنه لنا، هذا الاسم! مهلاً! أعتقد أنه سيتعيّن علينا قتلها... سيكون ذلك أفضل...».

لا توجد كلمات يمكن أن تعبّر عن الاندفاع الغاضب لهذه المرأة التي بدَت واحدةً من الحكماء القدماء في غابات بلاد الغال. كان ذلك لأنها كرهت لفترةٍ طويلةٍ – كراهيةً شديدةً – هذه الدخيلة التي سلبَت منها سيّدها.. يبدو أنها كانت تمسك بها، ولا تريد الذئبة أن تترك فريستها...

لم يعد جورج يقاوم، بل انحنى أمام خوفٍ مرعبٍ؛ أراد أن يعرف الآن... الواقع، مهما كان، سيكون كسَكينة لهذه الآلام التي لا توصف.

- جيرمين، تحدّثي!

- حسناً! قبل خمسة أيام، فقط... جاءَ شخصٌ، نوعٌ من رجال الأعمال، إلى بتيت تويلري، زاعماً أنه يريد التحدّث إلى السيد دي مورلين عن بيع مزرعة... كان شاباً وسيماً، صراحةً... في الأربعينيات من عمره، حليق الذقن، وله سوالفُ طويلةٌ، وعينان صغيرتان تومضان، لكنهما ذكيّتان كعيني القط... أنت تعلم أنَّ السيد دي مورلين لم يهتم أبداً بالأعمال التجارية. فور قول هذا الرجل الذي يتمتع بثقةٍ عاليةٍ، كما سترى، كلمتين عن البيع - كذبة - ردَّ عليه الجنرال: "الأمر لا يعنيني. تحدّث مع زوجتي!". صحيح أنَّه كان دائماً الأمر نفسه؛ هي تقوم بكل شيء، وتهتم بكل شيء... وحتى إنها تستلم الأموال... ستعرف بماذا استخدمته. وصلت السيدة الجميلة في تلك اللحظة، قال الجنرال لها كلمتين وتركها مع الآخر... أما أنا، إذا كنت مخطئةً، ولستُ مخطئةً، فهذا يعنيني فقط - هذا الرجل لم يرُق لي... لاحظتُ شيئاً بالفعل... عندما رأى السيدة، أبدى حركةً من الدهشة... أو بالأحرى من العاطفة. أما هي... (آه! إنها تسري في دمي، تلك المرأة!) نظرَت إليه في وجهه تماماً وكأنها لا تعرفه.

رغبتُ في الاستماع... لكنهما يتحدثان أمام المنزل، بجوار الكشك الصغير... وجبَ عليّ أن أكون في هذا الكشك... في تلك اللحظة، لم أستطع الدخول إليه من دون أن يراني أحد. فقط راقبتهما... تابعتُ حركة الشّفاه، غاضبةً من عدم سماع الأصوات. لكن ما رأيته هو أنهما كانا يتناقشان... بل يتجادلان... أرادَت إظهار الكرامة، وكانت تلك نقطة قوّتها... أما هو، فكان شاحباً بعض الشيء، لكنه هادئٌ جداً، يتبجّح، وكاد أن يصرخ... حتى إن

ديلتور خشيت أن يسمع السيد دي مورلين الجالس في غرفة المعيشة شيئاً ما، فوضعَت يدها على ذراع الرجل وجرّته إلى الجانب الآخر من الكشك... وأنا استغلّيتُ هذه الحركة، ركضتُ لأختبئ في الباحة... لكنني تأخرت؛ إذ أنهيا مؤامرتهما. لكن هل تعلم يا جورج، هل تعلم عماذا تحدثا هناك... على بعد مرمى حجرٍ من والدك؟

كانت هي من تكلّم: "سيدي، أنت لئيم...! لكنني مجبرةٌ على أن أطيعك... تريد عشرة آلاف فرنك؟".

- نعم، عشرة آلاف فرنك...

- وستسلّمني الرسائل...

- جميعها، من دون استثناء.

- حسناً! غداً مساءً يا سيدي... لا تدخل هنا... تجوّل في الحديقة... وقفْ عند السياج في الساعة التاسعة حيث ستلاحظ ستارة من الأشجار الخضراء... سأعطيك المبلغ.

- وأنا يا سيدتي سأسلّمك تلك الرسائل.

تلعثم ببعضِ كلماتٍ من الندم... الاعتذار... دفعتهُ نحو البوابة، واختفى الرجل. كانت حركته تقول إنه سيكون دقيقاً.

وهكذا. خمس دقائق بعد ذلك، قالت ديلتور - الكاذبة الوقحة - للسيد دي مورلين: "عروض وكيل الأعمال هذا غير مقبولةٍ... ستكون صفقةً حمقاء. سنحتفظ بالمزرعة".

أوه! قالت: "نحن" عندما يتعلّق الأمر بثروة عائلة مورلين. حسناً! جورج... ماذا تقول؟ وهل مازلتَ تريد أن تفرض الصمت عليّ؟

قال جورج بصوتٍ منخفضٍ لدرجة أنه بالكاد يمكن إدراكه.

أصبحت جيرمين الآن تتحدث بلهجة الانتصار: «لن أخفي ذلك عنك... كرهتُ هذه المرأة غريزيّاً... إلا أنني لم أكن لأفترض هذا... رسائل؛ تُشترى بعشرة آلاف فرنك! نعرف ما يعني هذا الأمر، أليس كذلك؟ كان غبيّاً لعدم طلب المزيد... للحفاظ على اسمه وسمعتها كشخصٍ صادقٍ، كانت ستسرق آخر سنتٍ من والدك... كما تعلم، لا تملك هذه المتسولة فلساً أحمر! والعشرة آلاف فرنك هي عملات الجنرال التي رقصت لها!».

استمتعت جيرمين بإظهار نفسها بذيئةً، كما لو أنها تريد أن تدوس على عدوّها.

- هكذا إذاً! لقد دفعت... أعادت شراء هذه الرسائل...

- انتظر! ستعرف كل شيء... لكن أولاً يا جورج، أنا أركع أمامك... لأنه يجب أن تسامحني!

- أنت! جيرمين! ولكن بأيّ خطأ يجب أن تتهمي نفسك؟

- اعتقدتُ أنني فعلتُ الصواب... أردتُ أن أكشف قناع المنافقة... في مساء اليوم التالي، أخذت الجنرال إلى الحديقة، على مرمى حجرٍ من المكان الذي أعطت فيه ديلتور موعدها. هي ظنَّت أن زوجها قد خرج... لكنه كان هناك، قريباً جداً، ورأى كل شيء... حضرَ الرجل، وأعطته ديلتور عشرة آلاف فرنك التي تجرّأ الآخر على عدّها... ثم الرسائل في المحفظة. آه! كيف حشرَتها في جيبها بصرخةِ فرحٍ! ظنَّت أنها نجَت... لكنها نسيتني، أنا!

قفزَ جورجَ على قدميه، وقال: «أيتها البائسة! لكنك أنتِ من قتل والدي!».

ردَّت جيرمين: «هل كنت أعرف؟ اعتقدتُ أنه سيطرد تلك المرأة... هل كان بإمكاني أن أعرف أنه سيعاقب نفسه على خطأ هذه المجرمة؟ ألم يكن ينبغي أن يفكر بك أولاً؛ بولده؟ آه! أقسم بحياتي أنني لم أظن أنه مجنونٌ بحبّها لدرجة الموت من خيانتها».

أوشكَ جورج على السقوط؛ جعلته هذه الهاوية يشعر بالدوار، وسأل: «وفي النهاية؟».

ردَّت جيرمين: «وفي النهاية، عندما عادَت إلى المنزل، فخورةً جداً بلا شك.. ومستعدةً للصعود إلى غرفتها لحرقِ الرسائل.. أو من يدري، ربما لإعادة قراءتها...! كان الجنرال واقفاً هناك، أمامها؛ أخذها من يدها وأدخلها إلى غرفته... أوه! كانت هناك دموعٌ، توسّلاتٌ... جرّت نفسها على ركبتيه... سمعتها تصرخ: "العفو! العفو!". لا أعرف ماذا أجابها، كان صوته مكتوماً ومحطّماً جداً... واستمرّ ذلك معظم الليل، ثم أرجع ديلتور إلى غرفتها... لم تكن تريد المغادرة... بالطبع! بينما ظننتُ حينها أنه أمرها بمغادرة المنزل... سادَ الصمت. عدتُ إلى الأعلى، إلى إحدى الغرف، متوقّعةً أن أرى الوجه المخزي لهذه المرأة يحمرّ خجلاً أمام عيني في الصباح... حسناً! لا! إنه جنونٌ! إنه هو، إنه والدك الذي أراد المغادرة! إنه هو الذي فرَّ هارباً ليلاً من منزله... كاللص! ذهب لينتحر... المسكين! السيد الطيب والعزيز، ذهب لينتحر على بعد فرسخٍ من هنا... جورج! نعم، كنتُ مخطئةً... أشعر بذلك، أعلم الآن... لكن هيا، هل يمكنني ترك الزنا في مكان والدتك؟! هذا لم يكن ممكناً؛ لقد قمتُ بواجبي!». ثم أظهرت قراراً حازماً: «بالمناسبة، إذا كنت تعتبرني مذنبةً، اقتلني إذا شئت... ولكن اقتلها أولاً؛ لأرى موتها أمامي حتى أموت سعيدة».

صامتاً، ابتعد جورج ببطءٍ عن جيرمين التي تشبّثت بملابسه. ظلّت منهارةً للحظاتٍ، ساجدةً... وعندما رفعت رأسها كان جورج قد اختفى... ولكنها سرعان ما رأت ضوءاً في نافذة غرفة نومه.

في السابعة صباحاً، عندما خرجت ماري دي مورلين من غرفتها، رأت جيرمين عند الدرج، على أهبة الاستعداد، إذا جاز التعبير.

كانت الشابة مستعدةً لقولِ كلمةٍ طيبةٍ لها، لكن نظراتها اصطدمت بالبرق الجليدي الذي ومضَ من عيني الخادمة. لاحظَت على شفتيها ابتسامةً شريرةً مكوّنةً من تقلّصاتٍ وغضبٍ مكبوتٍ. كانت تعلم أنها لم تكن محبوبةً. لكن منذ ثلاثة أيام فقط شعرت بالكراهية.

قالت جيرمين، مؤكدةً بسخريةٍ واضحةٍ على اللقب والاسم الذي أطلقته على "ماري ديلتور": «يطلب السيد جورج السيدة الكونتيسة دي مورلين، من فضلك أن تتكرمي وتنضمّي إليه في غرفة الجنرال».

من النبرة التي نُطقَت بها هذه الكلمات، لم تستطع السيدة دي مورلين كبحَ ارتعاشها. لم تستطع تفسير سبب شعورها بالحزن فجأة. ربما بدا لها أن هذا الابن الذي لم ترَه قبل الكارثة، والذي كرّسَت له من بعيدٍ عاطفة الأخوّة بدلاً من عاطفة الأمومة، ينتهز بسرعةٍ كبيرةٍ الامتيازات التي منحتها له وفاة والده.. لكنها خمّنَت، وشعرَت بشيءٍ آخر.

ظلّت جيرمين ساكنةً للحظة، متفاجئةً وحزينةً في الوقت نفسه، وتابعت: «هل قدمتُ فكرتي بشكلٍ سيئٍ؟».

ردَّت ماري: «لا! لا! أنا ذاهبة... خلال بضعِ دقائق».

عادت ماري فجأةً إلى غرفتها. وامتثالاً للغريزة الأنثوية التي لا تستسلم أبداً، نظرَت إلى المرآة ومررَت يديها البيضاويان على خصلات شعرها المتعرّجة. ثم، كما لو أنها اتخذَت قراراً حاسماً خلال تلك اللحظة القصيرة، أشارت بإشارة وتمتمت: «هيا!».

سارَت نحو غرفة السيد دي مورلين. وعندما وضعَت يدها على المفتاح، شعرَت بإغماءٍ مفاجئٍ وتجمّعت الدموع في عينيها. ولكن كما لو أنها خمّنَت وجود جيرمين مستكينةً في زاوية الدرج ترصدها بلا رحمة، فتحَت الباب...

كان جورج واقفاً وظهره مُداراً أمام النافذة. عند سماع صوت الباب، استدار. مرَّ ضوء النهار رمادياً شاحباً تحت الستائر الثقيلة والمتدلّية في طياتٍ سميكةٍ، وعلى هذه الخلفية التي بدت وكأنها مصنوعةٌ من الضباب، برزَت شخصية شابٍ طويل القامة، وجهه بالكاد مضاء...

توقفَت ماري، كما لو أنها مرتبكةٌ بسَكينةٍ هذا المكان الجنائزي الذي اختاره جورج للقائهما الأول. انحنى هذا الأخير واتخذَ خطوةً نحوها. حينها رأت ملامح وجهه مُغطاةً بشحوبٍ مخيفٍ لدرجة أنها لم تستطع كبح صرخة قلقٍ، وقالت بسرعةٍ:« أنت تعاني!».

قامَ بحركةٍ بطيئةٍ فرضَ عليها الصمت، ثم أشارَ إليها بمقعدٍ. لم يتكلم؛ لم تعد الكلمات تتدفّق من حلقه الضيّق. سيطرَ على السيدة دي مورلين شعورٌ بالرّعب الغامض حاولت عبثاً التغلب عليه.

في هذه الغرفة التي سبق وصفها، والتي تكاد بساطتها تكون رهبانيّةً، تواجه صورة بالحجم الطبيعي - صورة الجنرال بكامل ملابسه - النافذة.

عندما سقطت ماري على الكرسي المحدّد لها، استدارَ جورج نحو هذه الصورة، وذراعاه متقاطعتان على صدره، ونظرَ إليها بكل قوة نظرته الغاضبة. كان ذلك لأنه يطلب منها نصيحةً أخيرةً! لأنه يرغب في هذا الاستدعاء أن يطالب الشخص الذي لم يعد هناك بالحق في أن يكون عنيداً. محظورةً، لم تجرؤ ماري على التحدث أولاً. ومع ذلك، استمرَّ هذا الصمت الطويل ثقيلاً جداً بحيث لا يمكن تحمّله.

رفعَ جورج عينيه عن الصورة. ثم وقف أمام السيدة دي مورلين، وقال: « سيدتي، أمازلت تجهلين سبب انتحار والدي؟».

أجابت ماري من دون ترددٍ: «لم أعلم شيئاً.. لم أخمّن شيئاً..».

بقولِ هذا، يمكن للمرء أن يقول إنها استعادت السيطرة على نفسها فجأة. من الواضح أنَّ هذا السؤال لم يفاجئها، فقد كانت إجاباتها جاهزةً مسبقاً.

بدأ جورج بالمشي، والانفعال ظاهرٌ على يديه، ثم استأنف: «إذاً، في الليلة التي سبقت هذا الانتحار المروع، ألم يخبركِ والدي شيئاً يمكن أن يفتح عينيك على هذا المشروع المأساوي؟ أيّ شيء! أيّ كلمة؟».

كررت السيدة دي مورلين مثل الصدى: «ولا كلمة!».

تابع جورج: «وأنتِ على يقين أن والدي – على الأقل في الظاهر – لم يكن لديه سببٌ لقلقٍ شديدٍ... أو لحزنٍ ما؟».

قالت ماري بصوتها الهادئ: «لم ألاحظ ذلك، وعلاوة على هذا، لم تكن هذه هي المرة الأولى التي نقضي فيها الليل نتحدث...».

- ما هو موضوعِ هذه المحادثة الطويلة؟

- تحدثنا عن أمورٍ كثيرةٍ!

- ولكن من بين أمورٍ أخرى!

- أستطيع أن أخبرك أننا تحدثنا عنكَ كثيراً...

يمكننا أن نخمّن أن جورج كان يكبح جماح الغضب على شفتيه، مستعدّاً للانفجار. ومع ذلك، بدَت السيدة دي مورلين كأنها لم تهتم بهذا. وبعينين نصف مغمضتين، بدَت كمَن يصغي باهتمامٍ متواصلٍ ونشطٍ، كمَن يخشى أن تفوته كلمةٌ واحدةٌ، أو بالأحرى كمَن يحاول التنبؤ بالكلمات التي ستُنطق.

كان هناك صمتٌ آخر؛ لم يكن جورج دي مورلين ماهراً؛ إذ يواجه البحّارة الخطر ويحاربونه وجهاً لوجه. هناك حربٌ لا رحمة فيها بين البحر والإنسان، حيث تكون الحياة على المحكّ. ولكن، على الأقل، مَن يدافع عن نفسه يتصرف بكامل قوته؛ إنه يردُّ الضربات بضرباتٍ أخرى، العدو أقوى من أن يشفق عليه.

هنا، في هذه الغرفة، في مواجهة هذه المرأة التي يمكن أن يكسرها نفَس الزفير، أرادَ جورج أن يضرب، ولكنه أمسك ذراعه. لقد كان مرعوباً من الضربات التي يمكن أن يوجهها، والتي يجب أن يوجهها. وفي الوقت نفسه، كان رعب النِفاق، والاشمئزاز من هذا الإخفاء

المتخفّي وراء الضعف، يثيران غضبه أكثر فأكثر. كان رجلاً عنيفاً، وهذا يعني أن جهوده التي يبذلها لقمعِ الغضب، جعلت انفجاره أكثر رعباً. لقد كان أخرقَ في لحظات المراوغة اللطيفة هذه؛ شعرَ تحت يده كمَن يمسك بنصلٍ عارٍ، وكان متحمّساً لرفضِ كل شكٍّ، وكل خوفٍ... بعد أن تأمل طوال الليل، أقسمَ أن يظل هادئاً؛ قررَ أنه سيستخدم أولاً التحفّظ الحذر، وسيحاول بأقصى ما يمكن لاستفزاز الاعتراف...

لكن صوته المرتجف يكذّب هذه التعهدات، وصرخَ فيه ضميره ليتحرك. لقد اكتفى من هذا الصبر وهذا التحسس. كان هناك شخصٌ مذنبٌ، وينبغي على القاضي أن يظهر نفسه.

وفجأة، كما لو أن الزناد قد تحرك فجأة، كما لو أن كسراً في صدره استنفذَ كل جهدٍ للرجوع إلى الوراء، صرخَ جورج: «ولكن لا تكذبي يا سيدتي! ألا تفهمين أنني أعلم كل شيء!».

عادت دماء الشابة كلها إلى قلبها؛ وغزا شحوبٌ أرجوانيٌّ وجهها.

يمكننا القول إنها كادت أن تفقد وعيها؛ لكنها لم تفعل. وباستعادة إرادتها، بسرعةٍ كبيرةٍ لدرجة أن الانهيار كان بالكاد ملحوظاً، تمالكت ماري نفسها لتقول: «أنت تهينني! هذا سيئ! ماذا تعلم؟».

كان صوتها ناعماً، مُثقلاً بالدموع، لكنها لم تبكِ؛ أشرق بريقٌ في عينيها، وتحوّل لونهما الأزرق إلى الرماديّ الفولاذي.

في مواجهة هذه الكلمة "أنت تهينني!" تردّد جورج. كان الأمر صحيحاً، وكانت هذه الإهانة موجهةً إلى المرأة، ولكن هذه المرأة قتلت والده أيضاً!

تابع بلهجةٍ أكثر جدية: «أعلم يا سيدتي أن والدي سمعَ سرّاً مؤسفاً... وأن هذا السرّ هو الذي وضع سلاح الموت في يده».

قالت ماري بصوتٍ منخفضٍ وهي تنظر إلى جورج منتظرةً إجابته بكربٍ جعل حبّات العرق تسيل على جبينها الأبيض: «وهذا السرُّ! هذا السرُّ! أنت تعرفه؟».

أجاب جورج: «نعم!».

انحنت السيدة دي مورلين نحو الخلف وأغلقت عينيها. لقد استمعت إلى هذه الإجابة: "نعم!" وتأمّلت في طبيعتها ونغمتها، وقالت: «أوضح بشكلٍ أكثر».

صرخ جورج: «هاه! ما فائدة ذلك؟! سيدتي، هل تحتاجين حقاً إلى إحياء هذه العار المدفون في القبر؟».

هنا، بدأت السيدة دي مورلين مرةً أخرى بوضوحٍ وبجرأةٍ فريدةٍ: «عارٌ! أنا لا أفهمك!».

قامَ جورج بلفتةٍ غاضبةٍ، وقال: «ألم يكتشف والدي بعض الرسائل؟».

سألت ماري باندهاشٍ: «أنت تعلم ذلك؟!».

أجاب جورج: «منذ أن قلتُ لكِ إنني أعلم كل شيء!».

عقَّبَت ماري: «تابع!».

الغريب في الأمر أنها لم تخفض رأسها. لقد كان هناك كثيرٌ من العار في النهاية!

تابع جورج: «أثبتت هذه الرسائل لأبي أن تلك التي أحبّها معتقدًا أنها عفيفةٌ، تلك المرأة قد أهانته!».

قامت السيدة دي مورلين بحركةٍ غريبةٍ كانت كتعبيرٍ عن الإحباط، وقالت بصوتٍ شبه نافد: «أخيراً! أخبرني... مَن تقصد؟».

سأل جورج: «مَن؟».

تقدّمَ نحوها مباشرة، عاجزاً عن احتواء نفسه لفترةٍ أطول؛ أمسكها من معصميها، ثم ثناها على السّجادة، وقال: «يا من اختارك والدي، يا من كانت لديكِ كلمةٌ واحدةٌ فقط لتقوليها حتى لا تغتصبي هذا البيت الشريف – حيث كانت والدتي – المكان الذي عُرِضَ عليكِ! يا من كنت شابةً، ولديها المستقبل أمامها... كيف تجرّأتِ وأنتِ تحملين هذا العار على خداع هذا الرجل؟».

أيّ شخص ينظر إلى وجه ماري دي مورلين في اللحظة التي وُجّهت فيها هذه التهمة إليها، سيعتقد أنه يتعرّض لهلوسةٍ ما. سقطَت على ركبتيها، وأحنَت رأسها، ومع ذلك، كان هناك شيءٌ معلّقٌ على شفتيها يشبه الابتسامة، بالكاد مرئيٌّ، ولكنه حقيقيٌّ.

صاحَ جورج: «أوه! أنت لا تنكرين ذلك الآن! أيتها التعيسة! ألم تفهمي أنه لا يوجد لغزٌ لا يمكن العثور على إجابة له. هذا الأب المسكين، هذا الرجل الشريف الذي أحبكِ بجنون شابٍ؛ أخذتِه، وسرقتِ اسمه لتجرّيه في الوحل! لم يقلق بشأن ذلك، أشعر به، أتنبّأ به. شرفه! ياه! كان سيشتريه بثمنٍ بخسٍ في هذه الساعة اللعينة... ما قتله هو أنه أَحبَّكِ! لأنه رأى أوهامه التي يعتزُّ بها مع الضعف البهيج لطفلٍ عجوزٍ محطمةً بين يديه... لقد

دمّرته كثرة الخداع، وأحزنته، وكسرته! آه! وعند إعادة شراء رسائل حبّك التي جاء محتالٌ بائسٌ ليبيعك إياها، ظننتي أنكِ حُرّةٌ، وتنعمين بالسلام... كان القَدَر يراقب... وعندما أجبركِ على إعطائه هذه الأدلّة الواضحة على كذبك، وعلى جُبنك، أصبح مجنوناً؛ لم يقتلك! كم أَحَبَّكِ! فضّلَ الموت ليندفع من ذروة سعادته المحطّمة إلى أعماق العدم! آه! أيتها البائسة! في الحقيقة، ما لم يفعله هو، أنا أرغب في فعله!».

لم يعد يتمالك نفسه، ثبّتَ عينيه على عينيّ الصورة، ورفعَ جورج ذراعه.

قالت ماري دي مورلين بلهجةٍ هادئةٍ الآن، بحيث يمكن للمرء أن يفهم أنها مستعدةٌ للعقاب: «خذ قرارك!».

صرخ الشاب: «أوه! لو كان لدي دليلٌ!».

قال صوتٌ: «هاكَ واحداً!»، ودخلت جيرمين، متابعة كلامها: «أنتَ تطلب دليلاً يا جورج، فمازلت تشكّ! حسناً! انظر إلى هذا... إنها وردة وسام جوقة الشّرف التي كان يرتديها والدك في عروته... قبل أن ينتحر، انتزعها ورماها بعيداً عنه... مَن الذي جلبَ العار إليه؟».

دفعها جورج بعنفٍ إلى الخارج، وقال: «اذهبي، أنا السيّد هنا، أنا القاضي...!»، ثم عاد إلى ماري التي لم تحرّك ساكناً، وما زالت جاثية على ركبتيها، ورأسها منخفضٌ، قال لها بسرعةٍ وبصوتٍ لاهثٍ: «سيدتي، ستغادرين... ستختفين. لا أريد معاقبتك. تواجه النساء مثلك العقاب ويقدمن أنفسهن له... ما فعلته بغيضٌ جداً... لا أعلم إذا كنتِ

تفهمين ذلك. صمتكِ مقززٌ بالنسبة إليّ.. ومع ذلك أمنعك من التحدث.. خلال ساعة، ستغادرين البيت.. أخبريني أنكِ ستطيعين..».

أجابت الكونتيسة مورلين: «سأطيع!».

اتخذَ جورج خطوةً نحو الباب، ثم توقّف فجأةً وعاد إلى المرأة، وأضاف: «نسيت! اعترف أبي بمهركِ.. كوني مطمئنّة:؛ ستحصلين على المال!».

انتصبَت بعنفٍ، نصفياً، للاحتجاج على هذه الإهانة الكبرى... ثم سقطَت مرةً أخرى على ركبتيها، ورأسها بين يديها، محطمةً... كما لو أنَّها ميتة.

أُغلق الباب... لقد كانت مُدانة فعلاً.

[6]

- هل ستُغادر؟ سألت جيرمين.

- خلال ساعة...

- وهل هذا كل شيء؟

- لا أستطيع أن أفعل أكثر من ذلك...

- أنت لا تجرؤ على قتلها...

- ابتعدي! أنت تثيرين فيّ الاشمئزاز!

في تلك اللحظة، اجتاحت جيرمين ثورةُ غضبٍ شديدةٍ، فقالت: «أوه! إذاً أنت من يتحدث! أنا أثير فيك الاشمئزاز؟! هل حملتَ طفلاً صغيراً بين ذراعيك لمدة أربع أو خمس ساعات؟ هل كنت يوماً ساذجاً لتضحّي بجسدك وبروحك، لأنه يجد صعوبةً في النوم؟ أو لأنه يعاني من نزوةٍ ما؟! آه! أنا أثير فيك الاشمئزاز! لماذا؟ لأنني أجبرتك على إخبار تلك العاهرة بما فعلته! هذا يزعجك! أوه، حسناً! هل تستطيع أن تتزوج أرملة والدك؟ لا أعرف... أنا...!».

قفزَ جورج واضعاً يديه على كتفيّ العجوز جيرمين التي كان وجهها الشاحب، الممتلئ بالتجاعيد، يتوهّج بالغضب الرّاضي، وقال: «سأقول لكِ كلمةً واحدةً فقط يا جيرمين العجوز: أنا أكرهك وأحتقرك! الآن... اخرجي من هنا...».

انقلبَت جيرمين إلى الوراء وقالت وهي تضحك بصوتٍ عالٍ: «أوه! يُنظر هنا إلى النساء الصّادقات بازدراءٍ! حسناً! كان ينبغي قول ذلك سابقاً. أراهن أنها لن ترحل؛ لديها بعض الحيل الخاصة بها!».

جورج الذي أصبح محطّماً ومذعوراً من كل هذه المشاهد، ضغطَ بقبضتيه بعنفٍ على كتفيّ هذه المرأة الغاضبة حتى التوَت ركبتيها وقال: «كلمةٌ أخرى وسأقتلك!».

دخل الخادم وتوقّف للحظة، مذهولاً عندما رأى جيرمين راكعةً.

سأل جورج: «ماذا هناك؟».

أجاب الخادم: «وصل السيد دي سامريويل من باريس، ويطلب مقابلة فورية من السيد دي مورلين...».

ردَّ جورج: «هذا جيد. أنا ذاهب...».

نهضَت جيرمين. همسَت وفمها يزبد: «أنتم جميعاً قَتلة! هو الوحيد الذي كان صالحاً... مثل الأولى، الحقيقية، والكونتيسة دي مورلين الوحيدة...».

قال جورج ووجهه يكاد يلامس وجه المرأة العجوز: «استمعي إليَّ يا جيرمين، إذا قلتِ كلمةً واحدةً... إذا قمتِ بحركةٍ من شأنها أن تتسبب في معاناة هذه المرأة البائسة، سأطردك...».

ردَّت جيرمين باندهاشٍ: «أنا! تطردني؟! لن تجرؤ على فعل ذلك!».

لكن جورج كان قد خرج بالفعل...

كان السيد دي سامريويل ينتظره في غرفة معيشةٍ صغيرةٍ في الطابق الأرضي، تُستخدم كمكتبة. حين دخل جورج رأى ملامحه المتهاوية، فتقدَّم نحوه بيدين مفتوحتين، وقال: «جورج، ما الذي حلَّ بك؟».

ردَّ الشاب: «أنا؟! لا شيء! لكَ أن تتخيل أنني مازلت أبحث عن السبب..».

- عن سبب انتحار السيد دي مورلين؟

- لا أستطيع أن أكتشف شيئاً..

- حسناً! أنا! أنا أحمل لكَ الحقيقة...

صرخَ جورج بصوتٍ أجشٍّ: «ماذا؟!»، هذا السرُّ الذي أرادَ دفنه في غياهب النسيان سيظهر أمامه! لقد أصدرَ حكمه؛ تمَّ القرار، تمَّ طرد هذه المرأة. كان هذا التعويض كافياً، لكن بشرط ألا يعرف أحدٌ الحقيقة أو حتى يشكّ فيها. وهذا الرجل، صديق والده، يدّعي أنه يعرف! إذاً، كان العار صارخاً، كان يجب أن يكون العقاب أشد. وإلا... وارتفعت كلمات جيرمين البغيضة إلى وعيهِ بمرارةٍ رهيبةٍ.

انتظرَ السيد دي سامريويل المهيب الذي يرتدي ملابس سوداء وأزراراً عسكريةً الشاب بصبرٍ حتى ينفصل عن تأمّلاته، وقال له أخيراً: «كن رجلاً! أليس من العزاء أن تمتلك أخيراً مفتاح هذا اللغز المزعج؟».

نظرَ البحّار إلى السيد دي سامريويل، وقال: «إذاً أنت تعرف كل شيء!».

ردَّ السيد دي سامريويل: «أنا! لا، بالعكس! لا أعرف شيئاً على الإطلاق.. أتمنى فقط أن تشرح لي عندما تقرأ..».

- عندما أقرأ... ماذا بالضبط؟

- أنت مضطربٌ جداً يا صديقي – وأنا بالتأكيد لا ألومك على ذلك – لدرجة أنكَ لم تسمح لي توضيح الأمر لك بعد. في اليوم نفسه، قبل ثلاث ساعات فقط، حضر كاتب عدل السيد دي مورلين المسكين إلى منزلي. كان قد استلم أول أمس، في الوقت الذي حدث فيه انتحار الجنرال، طرداً مختوماً... كان غائباً ولم يفتحه إلا مساء أمس عند عودته. وتحت هذا الختم كانت هناك رسالةٌ موجّهةٌ إليّ وظرفٌ مختومٌ آخر. ها هي الرسالة... اقرأها...

وسلّمَ جورج ورقةً مفتوحةً، أخذها الشاب. لقد كان خط يد والده بالفعل، وكُتِبَت بضعة أسطر بيدٍ ثابتةٍ: «عزيزي سامريويل: إنه شخصٌ يحتضر من يتوجّه إليك بصلاةٍ عليا... لأنني لقّمتُ المسدس الذي سيقتلني خلال ساعة. السيد جورج غائبٌ، أنتَ تعلم ذلك. لا أعرف متى سيعود. أرجوك أن تعطيه هذا الظرف المرفق بمجرد وصوله الأراضي الفرنسية. أنا أعوّل على صداقتك القديمة. وداعاً.

الجنرال دي مورلين».

بينما كان جورج يقرأ ويعيد قراءة هذه الرسالة، الهادئة والمخيفة جداً في جفافها واقتضابها، كان باب غرفة المعيشة مفتوحاً جزئياً، وفي هذه المساحة نصف المفتوحة،

محميةً من أنظار الرجلين، وقفت السيدة دي مورلين، شاحبةً. تستمع، وبالكاد قادرة على تمالك نفسها.

أثّرَت كلمةٌ على الشاب بعمقٍ لدرجة أنه لم يستطع أن يرفع عينيه عن السطر الذي يحتويها: "السيد جورج!". لماذا استخدم الجنرال هذا التعبير الغريب؟

قال السيد دي سامريويل: «هذا هو الظرف الثاني. لم أُرد أن أفوّت لحظةً في إحضاره إليك... أنا واثقٌ من أن صديقي المسكين قد عانى من خيبة أملٍ قاسيةٍ؛ لا بد أنه تعرّض للخيانة من قِبَل شخصٍ بائسٍ وضعَ ثقته فيه... وقد كسر اليأسُ هذا الضمير الذي يتسم بالصّدق السّامي... يجب أن نعرف كل شيء»، وأضاف القائد بصوتٍ باهتٍ: «لأنه سيتعيّن علينا أن ننتقم ونعاقب...».

قال جورج: «أنت على حقّ»، ثم مدَّ يده ليتسلّم الظرف الذي قدّمه له السيد دي سامريويل. أخذه، ومزّقَ الختم، وأخرجَ منه ورقتين؛ إحداهما بيضاء وجديدةٌ، ومن الواضح أنها رسالةٌ من الجنرال، والأخرى صفراء ذات طيّاتٍ سوداء. وبينما أوشك على فتحها، انفتح الباب بعنفٍ، واندفعت ماري دي مورلين نحوه صائحةً: «جورج! جورج! أناشدك؛ لا تقرأ!».

تراجع جورج إلى الوراء، مذهولاً. لكنه فهم فجأة؛ هذه المرأة خائفةٌ من أن يعرف السيد دي سامريويل خزيها! كانت تستمع عند الباب، وتواصل دورها البغيض والمثير للاشمئزاز! حسناً، لا! من غير المقبول أن تفلت هذه الوقاحة الزائدة من العقاب... وعندما أمسكَت

معصمَ جورج بحركةٍ مفاجئةٍ كما لو أنها تريد أن تنتزع منه أوراق الاتهام، دفعها بقوةٍ بعيداً حتى إنه أسقط المرأة المسكينة، مترنّحةً، على الأريكة...

لقد فات الأوان بالفعل... كان جورج غاضباً، وشَعره منتصبٌ، وشفتاه تشعران بالارتعاش العصبيّ الذي يسبق نوبة الجنون... عند صرخة ماري، وإدراكه أنه كان عن غير قصدٍ وسيلةً لشيءٍ مروعٍ، قفزَ السيد دي سامريويل نحو الشاب؛ ولكن هذا الأخير، وهو يضربُ بيديه إلى الأمام ليبعده عنه، مشى إلى الخلف، ونطقَ بتعجّباتٍ متقطعةٍ...

صرخَ السيد دي سامريويل: «ولكن ما الذي يحدث؟!».

استند جورج إلى الحائط، ممسكاً بين أصابعه المتشنّجة بالرسالتين اللتين قرأهما للتو، وقال: «اتركني! لا تقترب! لا تلمسني!».

قال السيد دي سامريويل: «جورج، صديقي! جورج! باسم والدك!».

ارتعش الشاب كما لو أنه تلقّى سوطاً على وجهه، وقال: «والدي! هل لدي والد! هيا! أنا مجرّد ولد غير شرعيٍّ بائسٍ...».

وضعت ماري دي مورلين يدها على شفتيه قائلةً: «اسكت! كرامة لها؛ من أجل الميتة!».

لكن جورج لم يعد يسمع، أصبح مجنوناً... اندفع نحو الباب، وقبل أن يتمكّن أحدٌ من منعه من ذلك، صاح: «جيرمين!».

لم تكن المرأة العجوز بعيدةً؛ فظهرت فوراً. وضعَ جورج أصابعه حول معصمها، ثم جذبها، بل جرَّها، وألقى بها بعنفٍ ووحشيةٍ عند قدميّ السيدة دي مورلين: «اطلبي

الصَّفح من هذه المرأة، اجثي على ركبتيك، جبينك على الأرض! آه! أيتها المجنونة البائسة!».

توسّلَت ماري: «سيد دي مورلين!».

صرخَ جورج بصوتٍ مهتزٍّ: «لا يوجد هنا سيد دي مورلين! استمع يا سيد دي سامريويل. عليكَ أن تعرف الحقيقة كاملةً...».

قاطعته ماري: «جورج، كنْ حذراً! قد يسمع أحدهم!».

ردَّ جورج: «وإذاً؟ ما الأهم؟! حيثما توجد جريمةٌ، لا بد من تحقيق العدالة!».

جيرمين، مرعوبةً، لم تجرؤ على النّهوض. تمتمت فقط: «جريمة؟! ألم أخبرك بكلِّ شيءٍ؟!».

- لقد كذبتِ!

- أنا؟! أنا رأيتُ... أقول لكَ... رأيتُ...

- رأيتي السيدة دي مورلين تشتري رسائل من رجلٍ بائسٍ جاء ليبيعها لها... لقد اصطحبتِ السيد دي مورلين إلى الموعد الذي حددته هذه المرأة الشّريفة مع اللص... نعم فعلتِ ذلك، أيتها الجاسوسة الخسيسة! ورأى الجنرال السيدة دي مورلين تدفع، وتستلم هذه الرسائل... ولعبتِ دور يهوذا بشكلٍ بغيضٍ لدرجة أن السيد دي مورلين أجبرَ زوجته على تسليمها له!

انتحبَت السيدة دي مورلين: «أخذها مني... بالقوة!».

- حسناً! هذه الرسائل... استمع يا سيد دي سامريويل! اسمعي يا جيرمين! هذه الرسائل... لم تكن من تلك التي اتهمتها... هذه الرسائل كتبتها والدتي؛ بيرت دي شاليه، إلى عشيقها... وأثبتَت أنني، السارق للاسم، ابن هذا العشيق... يا جيرمين! هل فهمتِ الآن؟

صُدِمَ السيد دي سامريويل، وصرخت جيرمين منهارةً على الأرضية.

تابع جورج وهو في حالةٍ من السَّكَر نتيجة اليأس والعار: «وعندما رأى هذا الرجل؛ هذا الشريف العظيم، انهيار صرح الذكريات هذا، عندما رأى هذا العار يمتد على مدى ثلاثين عاماً من الماضي...».

قالت ماري دي مورلين بلهجةٍ مفجعةٍ: «عندما علم... أنكَ يا جورج، أنت الذي أحبه بكل طاقات روحه، لست ابنه...».

استنتج جورج: «انتحر!»، ثم وجّه كلامه إلى السيدة دي مورلين: «وأنتِ التي اتّهمتُكِ.. أنتِ التي أهنتُكِ.. وأنتِ انحنيتِ.. كنتِ ستدعينني أطردك! أنا الذي لست هنا سوى ابن الخائن الجبان والمرأة الزانية، أنا سارق المودّة والاحترام!».

صاحت السيدة دي مورلين: «كفى! يجب أن أخبرك بالحقيقة كاملة...».

حثّها السيد دي سامريويل بإشارةٍ منه على الإصرار. كان جورج يثير رعبه: إنَّ إجباره على الاستماع هو انتصارٌ محققٌ على الجنون.

قالت ماري: «حسناً! جاء رجلٌ؛ رجل أعمال... تذرّعَ بعذرٍ، لكنه أراد التحدّث إلى السيدة دي مورلين... إلا أنه لم يكن يعلم أن والدتك قد توفيت... لذلك تفاجأ عندما رآني شابةً... تردّد في التحدث، معتقداً بوجود فخٍّ ما. هؤلاء البائسون دائماً ما يرتعبون. لكنني أجبرته

على الحديث، فاتخذ قراره. في مزادٍ علنيٍّ بعد وفاتها، اشترى خزانةً. وفي منزله، اكتشف درجاً سرّياً؛ كانت هناك رسائل... عبارة عن مراسلاتٍ كاملةٍ، تعود إلى خمسة وعشرين عاماً. قرأها... كُتِبَت الأسماء كاملةً بوضوحٍ. خطرت في ذهنه فكرةٌ جهنّميةٌ؛ أعتقدُ أن هذا النوع من الناس يسمّون ذلك بالابتزاز. لذا جاء إلى هنا، وأنا سمحتُ له بالتوضيح. على الرغم من شكّه في أنني زوجة السيد دي مورلين، إلا أنه كان مقتنعاً بأنني قريبةٌ له، ربما أخته، أو ابنته... هدّدني بإرسال كل هذه المراسلات له... كان يحفظ المقاطع عن ظهر قلبٍ ويقرأ لي منها من ذاكرته. عندها سألته مرعوبةً عن شروطه؛ فعرضَ عليّ سعراً قدره عشرة آلاف فرنك... في الواقع، وقبل يومين، كان السيد دي مورلين قد أعطاني مبلغاً كبيراً دفعه له كاتب العدل الخاص به، فلم أتردّد. اضطررتُ أن قوم بواجبي، كي أنقذ زوجي من يأسٍ رهيبٍ... لم أعلم أن جيرمين اكتشفت سرّ الموعد، كما لم أعلم أنها هي التي قادت السيد دي مورلين في ذلك المساء إلى المكان الذي تمَّت فيه الصّفقة الشّنيعة... دفعتُ عشرة آلاف فرنك، وسُلِّمِت الرسائل إليّ...».

سقطَ جورج وثبّت أظافره على جبينه النازف.

تابعت ماري: «أردتُ أن أركض إلى غرفتي، وأغلق على نفسي، وأمحو إلى الأبد أثر الماضي الذي كفّرَ عنه الموت... لكن السيد دي مورلين فاجأني وسحبني إلى غرفته... هناك، كان المشهد رهيباً.. إذ شكَّكَ بي؛ كنتُ أنا المتهمة. خانتني قواي لأصرخ في وجهه قائلةً إنه يشتمني، وإنني لست مذنبة! كان غاضباً... وفهمتُ الخطأ الذي ارتكبته... واعترفتُ،

اعترفتُ بكل شيء! جثيتُ على ركبتيه، طالبةً منه العفو. كانت مسرحيةً فظيعةً، ولعبتُها بكل قلبي، بكل حياتي! لكنه ظلَّ يفكر في تلك الرسائل... أرادها... وطالبَ بها... أوه! ناضلتُ بكل حماسةٍ... لكنّ مقاومتي ذاتها دفعته إلى الجنون... هو الطيب، الكريم! ضربني... كنت أودُّ لو قتلني، لو أنني أستطعتُ أن أمحو تلك هذه الرسائل الملعونة بموتي على الأقل... لكن عندما سقطت منهكةً، شبه مدمّرةٍ، شعرتُ أنه يخطفها مني.. فأغمضت عيني، وانتظرت..

لم تكن صرخةً تلك التي أطلقها، بل حشرجة موتٍ. ومع ذلك، عندما نظرتُ إليه بدا لي أنه استعاد هدوءه بالكامل. لكنني خمّنتُ العاصفة المخيفة التي تدور في ذهنه... كانت لدي مَهمّةٌ أخرى يجب أن أقوم بها: وهي إنكار الحقيقة حتى أمام الأدلة... للأسف! لم أقرأ تلك الرسائل... ولم أعلم أن الحقيقة تتضح في كل سطر. استمعَ إليّ، مبتسماً تقريباً. حينها، خشيتُ أن يخفي هذا الهدوء قراراً مريعاً. حدّثته عنكَ يا جورج! أنت الذي أحبّكَ كثيراً، والذي – أتذكر أنني استخدمت هذا التعبير – اكتسبت خلال عشرين عاماً من الحبّ حقَّ أن تقول عن نفسك ابنه. كانت الليلة تمرُّ ببطءٍ، بدا لي أنه شبه مقتنعٍ، ولا أستطيع أن أقول إنه مطمئنٌ؛ لكنني لم أخَفْ من شيءٍ. بلطفٍ، وبكلماتٍ رقيقةٍ ومواساةٍ، أجبرني على العودة إلى غرفتي. لم ينبغِ عليّ أن أتركه، ولكني كنت مرهقةً! نمتُ على كرسيٍّ بذراعين... وتعرفون الباقي».

كان السيد دي سامريويل يبكي. أما جورج الذي يعد متأثراً الآن، فتحَ عينيه وثبّتهما نحو الحائط الخشبي. لقد كانت لحظةً من المعاناة القاسية. حينها قال جورج: «حسناً! كنت

قد طلبت الإذن بالبقاء مع السيد دي مورلين لفترةٍ من الوقت، سأغادر مرةً أخرى. لا تطلبوا مني البقاء، هذا أمرٌ مستحيلٌ؛ سيذكّرني بما أنا عليه... أريد أن أكون محاطاً بفضاء البحار العظيمة، لأعيش خارج العالم! إنه أكثر من إرادتي، إنه واجبي... أليس كذلك يا سيد دي سامريويل؟».

أمالَ القائد رأسه كإشارةٍ على الموافقة.

أضاف جورج، متوجّهاً إلى السيدة دي مورلين: «أما بالنسبة إليكِ يا سيدتي، أريد أن أطلب منك معروفاً...».

ردَّت الشابة: «سيد جورج! حتى الساعة الأخيرة، أحبَّك السيد دي مورلين كابنٍ له... لقد مات وهو يحبك ويفقدك... سأطيعك كما لو أنه هو نفسه يتحدّث إليّ...».

قاطعها جورج قائلاً: «أودُّ أن يبقى هذا السرُّ مدفوناً إلى الأبد في أرواحنا...».

صرخت ماري: «أوه! أقسم لك بذلك!».

استأنف جورج: «عندما أغادر، سأترك لك توكيلاً عاماً... نعم سأتصرّف كما لو كنتِ حقاً الوريثة الحقيقية للسيد دي مورلين، ستتصرفين بثروته... أنا أطلب منك شيئاً واحداً فقط؛ اجعلي ذكراه محبوبةً، اجعليها مباركةً!»، ثم نهض وقال: «والآن، أقول لكم وداعاً! لن تروني مرةً أخرى!».

صاح السيد دي سامريويل وهو يحتضنه: «صديقي! ابني!».

قال جورج بصوتٍ خافتٍ: «لا تطلق عليّ اسم الابن، لقد آذيتني كثيراً...».

سألت ماري، وهي تمدُّ يدها نحوه: «وأنا؟ ألا تريد أن تناديني بأمك بعد الآن؟».

أجاب البحّار بقسوةٍ لا إراديةٍ: «سيكون ذلك إهانةً لكِ!».

خرجَ جورج، ولم يجرؤ السيد دي ساماريويل والسيدة دي مورلين على منعه.

في تلك اللحظة، لاحظ كلاهما اختفاء جيرمين من دون أن يلاحظا رحيلها.

تمتم السيد دي سامريويل: «يا إلهي! ماذا لو تحدّثَت؟!».

قالت ماري: «إنها تكرهني فقط».

بعد يومين، تلقّت السيدة دي مورلين من جورج دي مورلين صلاحياتٍ واسعةٍ لإدارة المتلكات التي تركها له والده.

ثم علم الناس من الصّحف أنه صعدَ على متنِ سفينةٍ حكوميةٍ مخصّصةٍ لاستكشاف البحار الجنوبية.

وفي الوقت نفسه، وردَت في أخبار الحوادث إشارةٌ إلى حادثة انتحارٍ؛ ألقَت امرأةٌ عجوزٌ بنفسها في نهر السين ونُقِلَت جثّتها إلى المشرحة.

لقد كانت جيرمين!

أُبلِغَت السيدة دي مورلين بعد ستة أشهر بوفاة جورج الذي ترك لها ثروته بأكملها بموجب وصيّته. وهي حافظت على القسَم الذي أقسمَته: تنتمي هذه الثروة إلى الفقراء...

مدين حرامي

مترجم سوري

مترجم يحمل ماجستير في اللسانيات التطبيقية – تعليم اللغة الفرنسية للأجانب من جامعة رين الثانية – فرنسا (2005 – 2007)، ودبلوم الدراسات الأدبية (2002 – 2004)، وإجازة في الأدب الفرنسي (1998 – 2002) من جامعة حلب – سوريا.

منذ عام 2009، يشغل منصب مدرّس في ماجستير التأهيل والتخصص FLE بالمعهد العالي للغات في جامعة حلب .كما عمل مترجمًا باللغتين العربية والفرنسية لدى منصة جدل للترجمة – الإمارات (2022 – 2025)، ومترجمًا للأفلام والمسلسلات في تنوير للترجمة – سوريا (2020 – 2022)، تولّي قسم اللغة الفرنسية في دار كينا للترجمة والنشر – الإمارات عام 2025.

صدر له

من الفرنسية إلى العربية

توماس سانكارا (2025) تحرر المرأة والنضال من أجل تحرير أفريقيا (دار كينا: الإمارات).

سيمون فايل (2025) انتظار الله (دار أما بعد: السعودية).

توماس سانكارا (2025) نحن ورثة ثورات العالم (دار كينا: الإمارات).

بينجامين رابييه (2024) قصص فلكلورية فكاهية (دار لازورد: العراق).

غودول (2023) صاحبة المكتبة (دار دريم بوك: الكويت).

إميل غابوريو (2025) عجوز البانتيول (جدار للثقافة والنشر: الإسكندرية).

جول ليرمينا (2025) أكسير الحياة (جدار للثقافة والنشر: الإسكندرية).

من العربية إلى الفرنسية

أسامة المسلم (2022) بساتين عربستان (دار أدب بوك: السعودية).
أسامة المسلم (2024) خوف (دار أدب بوك: السعودية).

إصدارات أخرى

لخطواتك رائحة الكينا (2025) ديوان شعري مشترك (دار كينا: الإمارات).

NOVEL

تُعدّ «اللغز» واحدة من أكثر روايات جول ليرمينا كثافةً نفسيةً وإحكامًا دراميًا، حيث لا يقوم التشويق على الحدث وحده، بل على التوتر الخفي بين الشخصيات، وعلى ما يُقال همسًا أكثر مما يُصرَّح به. يرى بعض النقاد أن ليرمينا يكتب هنا رواية شكّ لا رواية جريمة؛ فالسؤال ليس: من الفاعل؟ بل: كيف يمكن للحب والغيرة والوفاء أن تتحوّل إلى قوة هدم صامتة؟

في هذه الرواية، يتقدّم الانتحار بوصفه لغزًا أخلاقيًا قبل أن يكون لغزًا بوليسيًا، وتتحوّل الشخصيات إلى مرايا متقابلة تعكس هشاشة النفس البشرية حين تُحاصَر بالصمت والكتمان، وحين تتحوّل العاطفة إلى سلطة خفيّة. لا يبحث النص عن الإثارة السريعة، بل يبني توتره عبر التراكم البطيء، وعبر شبكة دقيقة من الإيحاءات والظلال النفسية.

بأسلوب رصين ودقيق، يرسم ليرمينا عالمًا تبدو فيه البراءة ملتبسة، والوفاء قابلاً للتأويل، والحقيقة مؤجلة حتى الصفحة الأخيرة. ولذلك اعتبرها نقاد كُثُر نموذجًا مبكرًا للرواية النفسية الحديثة، حيث لا يُكشف السرّ دفعةً واحدة، بل يتسرّب ببطء، كجرحٍ لا يُرى... لكنه قاتل.

JULES LERMINA

L'ÉNIGME

Translate it from français by Medyan Harami

9 781291 906790

Jidar
Culture & Publishing